لجنة البيان العربي

ابن قيس الرقيات

شاعر السياسة والغزل

تأليف

علي النجدي ناصف

أستاذ مساعد بكلية دار العلوم بجامعة فؤاد الأول

مطبعة احمد مخيمر بشارع فاروق تليفون ٤٧١٩٣

الحنان البيان العربي

ابن قيس الرقيات

شاعر السياسة والغزل

تأليف

على النجدي ناصف
أستاذ مساعد بكلية دار العلوم بجامعه فؤاد الأول

مطبعة أحمد مخيمر بشارع فاروق تليفون ٤٢١٩٢

بسم الله الرحمن الرحيم

أحمد الله رب العالمين ، وأصلى على رسوله الكريم : محمد صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه وسائر الأنبياء والمرسلين .

وهـــذا كتاب عن عبيدالله بن قيس الرقيات ، أردت به عرض حياته وتصوير فنه ، جهد ما أمكنت الطاقة ، وأسعفت المراجع التى أتيح لى الاطلاع عليها والانتفاع بها . وسيرد ذكرها بمواضع الاقتباس منها للكتاب : كل بموضعه . وتحريت أن يكون لوجه الإنصاف ، وفى سبيل الحقيقة كل ما بسطت من رأى ، وعالجت من درس .

ولئن كان بعض الأعلام حقيقـا أن يبعث بسيرته وحدها ، أو بآثاره وحدها - ليكونن ابن قيس من أولئك الذين يستحقون أن يبعثوا بهما معاً .

لقد كان صاحب رأى آمن به ، وأخلص له ، ولم يحجم فى سبيل نصرته أن يقذف بنفسه فى عباب الحياة السياسية المائجة المصطرعة ، يحاول مع المحاولين أن يميلوا بتيارها عن مجراه ، ويسيروه إلى حيث يشتهون ، لكنه كان جباراً عارماً لا قبل لهم به ، فما استطاعوا أن يحولوه ولا أن يعوقوه ؛ فمضى لطيته ، لا يذر

معترضاً إلا جرفه أو أتى عليه . ولولا أن كانت لصاحبنا بقية من أجل لهلك مع الهالكين .

فى سيرته إذا مجال للتدبر والاقتداء .

وكان بفضل مزاياه النفسية ، وخصائصه الفنية — مثالا صالحاً من الشعراء الإسلاميين ، فكان إلى سماحة طبعه ، وجيشان عاطفته — طيب النفس ، رقيقاً ، عفا ، خيراً ، خفيف الروح . تطالعك من شعره طرائف عذبة من بواكير الفن الإسلامى المهذب المصقول : يلتقى فيها كرم العرق بجلال العتق ، ونصاعة البراءة بسلامة الفطرة ، وتسلم على حداثة العهد بالجاهلية من الغلاظة والجفاء .

فى شعره إذا صقال وتهذيب .

وعسى الله أن يهيء كل ما أردت بهذا البحث من خير ومتاع .

القاهرة فى { غرة جمادى الآخرة سنة ١٣٦٨ / ٣١ مارس سنة ١٩٤٩ } — على النجدى ناصف

حياة ابن قيس

لا سبيل إلى تفصيل حياة ابن قيس وبسط القول فى جوانبها المختلفة ، فليس لدينا عنها أنباء وافية ، ولكن أشتات مقتضبة لا نظام فيها ولا غناء وما صاحبنا فى هذا ببدع ولا وحيد ، ولكنها حكم العصر والبيئة يجرى عليه كما جرى على سواه من أعلام القدماء .

ومع ذلك لقد تهيأ لنا بالتنقيب والدرس والمقابلة والاستنباط — أن نخلص له بترجمة لا أدعى أنها تقول كل شىء ، ولكن الذى تقوله ليس بقليل .

١ — نسبه :

قرشى لأبيه وأمه ، فأبوه من بنى عامر ابن لؤى . وهو قيس بن شُرَيح ، بن مالك ، بن ربيعة ، بن أُهيب ، ابن ضِباب ، بن حُجير ، بن عبد مَعِيص ، بن عامر ، بن لؤى بن غالب .

وأمه من بنى ليث بن بكر ، بن عبد مناة . وهى قتيلة ، بنة وهب بن عبدالله ، بن ربيعة ، بن طريف ، بن عدى ، بن سعد ابن ليث ، بن بكر ، بن عبد مناة ، بن كنانة .

وكان بنو مَعِيص بن عامر بن لؤى وبنو محارب بن فهر متحالفين ، وكان يقال لهما الأجربان من أهل تهامة ، لشدة

بأسهما ، وأذاهما من يناوئهما كما يؤذى الجرب من يبتلى به [١] .

ومما قال ابن قيس فى الفخر بنسبه :

وقد علمت قريش أنـ (م) نـا فرع إذا انتسبوا
مراجيح فى صفو فهمُ وفُرسان إذا ركبوا [٢]
وأخوالى بنـو ليــث وضَنْءُ نسائهم نُجُبُ [٣]
همُ منعوا تهــامة حيـ (م) ث تحمى بعضها العرب

٢ — مولده :

فجع ابن قيس الرقيات فى مصعب بن الزبير فى السنة الثانية والسبعين ، أو الثالثة والسبعين للهجرة ؛ فلم يسعه إلا أن يفر إلى الكوفة ، نجاء بنفسه من الأموية . وهناك استخفى عاما أو أكثر من عام ، ثم خرج ، فاستشفع عبدالله بن جعفر بن أبى طالب إلى عبد الملك بن مروان ؛ فأمنه عبد الملك وقبل الشفاعة فيه ، ولكنه أبى أن يكون له عطاء مع الناس، فجزع ابن قيس ، وقال لعبد الله : ما نفعنى أمانى ، تركت حياً كميت لا آخذ مع الناس عطاء أبداً ؛ فقال له عبدالله : كم بلغت من السن ؟ قال ستين سنة ؛ قال : فعمر نفسك ، قال : عشرين سنة من ذى قِبل [٤] فذلك ثمانون سنة ؛ قال : كم عطاؤك ؟ قال : ألفا درهم ؛ فأمر له بأربعين ألف درهم [٥] . . .

---

(١) الأغانى : ٥ : ٧٣ (٢) مراجيح : حلماء (٣) الضنء : الولد والأصل

(٤) من ذى قبل : مما استقبل من العمر (٥) الأغانى : ٥ : ٧٦

فإن قيس على هذا كان فى الستين من عمره حين ظفر بالأمان من عبد الملك : أى بعد مقتل مصعب بعام فى رواية وأكثر من عام فى رواية أخرى . وإذا يكون مولده بين السنتين : الثالثة عشرة، والخامسة عشرة للهجرة على التقريب .

هذا زمان ولادته . أما مكانها أو على الأقل مكان إقامته فلم نعثر عليه فى نص صريح . والنصوص التى تضمنته متخالفة ، حتى ما يمكن الوصول فيه إلى رأى يصح الاتفاق عليه ؛ فصاحب الأغانى يذكر أنه حين خرج من مخبئه بالكوفة قصد إلى مكة ؛ فلقى أهله هناك [1] . وشارح ديوانه يذكر أن نفراً من أهله قتل فى موقعة الحرة ، منهم أسامة وسعد ابنا أخيه عبد الله [2] . والشاعر نفسه يذكر أن له داراً بيثرب إذ يقول :

تلك نار أضاء حينا سناها   لمحب له بيــــثرب دار

فهل كان مقام الشاعر بمكة ومقام سائر أهله بالمدينة ، أو كان مقامهم جميعاً بالمدينة ثم رحلوا عنها إلى مكة بعد ما قتل منهم من قتل فى موقعة الحرة [3] ؟

---

(١) الأغانى : ٥ : ٧٧ (٢) الديوان : ١٨٥

(٣) أى حرة واقم ، وهى حرة بظاهر المدينة . وفيها كانت الوقعة المشهورة بين أهل المدينة وجنود يزيد أواخر ذى الحجة سنة ٦٣ . وذلك أن عثمان بن محمد والى المدينة أوفد إلى يزيد وفداً من أشراف أهل المدينة ؛ فأكرم يزيد وفادتهم ، وأجزل صلاتهم . فلما عادوا تناولوه بالذم والشتم ، وأذاعوا أنهم خلعوه، فتبعهم الناس ، وولوا أمرهم عبد الله —

وأيا ما يكن الواقع فقد هاجر بعد هذه الموقعة بعض المقيمين في المدينة من أهله. فقد جاء في الديوان: أن امرأة أسامة بن عبدالله بن قيس الرقيات حملت ولدها قيساً وعقبة ومحمداً إلى الجزيرة حين قتل أبوهم وعمهم [1]

٣ ــ اسمه:

قال البغدادى فى خزانة الأدب: ... فإن لقيس ابنين: عبدالله وعبيد الله. واختلفوا فى الشاعر منهما، فقال ابن قتيبة والمبرد فى الكامل: هو عبد الله المكبر، وقال المرزبانى فى معجمه: هو عبيد الله بالتصغير. قال: ومن الرواة من يقول: الشاعر عبد الله. وهو خطأ [2].

وليس عجيباً أن يقع هذا الخلاف بين الرواة؛ فلعله أن يكون الخلاف الذى لا معدى لهم عنه، ولا سبيل إلى اتقاء الوقوع فيه؛ لأن الاسمين يتفقان فى العجز، ولا يختلفان فى الصدر بغير زيادة الياء فى عبيد. وهنا كما لا يخفى ــ يتسع مجال اللبس، ويشق اجتناب التصحيف والخلط. ولو كان عبيد الله هو الشاعر بلا

ـــ ابن حنظلة الأنصارى؛ فأرسل إليهم يزيد النعمان بن بشير الأنصارى ناصحاً ونذيرا، فلم يستمعوا له. فأرسل عليهم جيشاً بقيادة مسلم بن عقبة المرى، فدعاهم مسلم إليه، ونصح لهم بالطاعة، وحذرهم الفتنة، وأمهلهم ثلاثا، فلم يستجيبوا له؛ فوقع بين الفريقين قتال شديد انتهى بهزيمة أهل المدينة وقتل ساداتها. وأباح مسلم المدينة ثلاثا، ثم أخذ البيعة ليزيد.

(١) الديوان: ١٩٢

(٢) خزانة الأدب: ٣: ٢٦٧

خلاف ، ولم يكن له مع ذلك أخ يسمى عبد الله — لأمكن للشبهة اليسيرة فى الرواية أو النبزة الضئيلة فى النسخ أن يتوقف متحرز مرتاب فى صدر الاسم : أهو عبيد أم عبد ؟ ؛ لأن مكبرهما أشيع من المصغر تداولا فى التسمية ، وأسرع منه خطوراً بالبال ، فكيف وإن معه أخاه عبد الله ؟

ويظهر أن الشاعر هو عبيد الله المصغر ؛ ففى المرثية التى رثى بها قتلى الحرة من أهله حين نعوا إليه وهو بالرقة — يذكر اسم عبد بلفظه المكبر ، وينسب بعض القتلى إليه على أنهم بنوه ، فيقول :

وأتى كتاب من يزيد وقد شُد الحزام بسرج بَغْلَتِيه
ينعَى بنىّ عبد وإخوتَهم حل الهلاك على أقاربيه
ونعى أسامةَ لى وإخوتَه فظللت مُسْتَكّا مسامعيه [(١)]

فهو فيما يسبق إلى الفهم إنما يعنى بعبد هنا أخاه عبد الله ؛ إذ ليس فى سلسلة نسبه ولا فى المعروفين من أهله من يسمى عبدا سوى أخيه عبد الله ، وجده السابع عبد بن مَعِيص ؛ لكن المقام لا يقتضى النسبة إلى هذا الجد ؛ فهو بارتفاع مكانه من سلسلة النسب — يستوعب حين ينسب إليه أهل بيته وذوى رحمه من الأقارب والأباعد . وهؤلاء لم يقتلوا جميعاً فى الحرة ، ولكن قتل منهم ناس لا غير ؛ فما كانت الحرب بين الخليفة وبينهم وحدهم

(١) مستكا : أصم .

ولكن كان معهم فيها غيرهم من أهل المدينة . ويؤكد هذا المعنى قول الديوان : « . . . حتى كانت وقعة الحرة ؛ فقتل فيها ناس من أهله »(١) .

ربما قيل : إن الشاعر قد آثر فى تعبيره المبالغة أو التجوز ؛ فقد يكون الذين قتلوا هم الكثرة الغالبة أو الصفوة المختارة ، والذين بقوا هم القلة الضئيلة أو البقية المطروحة ، لا مزية لها ، ولا معول عليها فى مدافعة أو تحصيل . ولكن يبقى حينئذ أن يكون ذكر الإخوة فى قول الشاعر فى أبياته السابقة : « ينعى بنى عبد وإخوتهم » من قبيل الفضول الذى لا حاجة إليه ، إن لم يكن من قبيل اللغو الذى لا معنى له ؛ فالنسبة إلى عَبْد معيص كما أسلفنا حرية أن تعم بالحكم أهله ، ولا تكاد تغادر منهم قريباً أو بعيداً . فما ذكر الإخوة معهم حينئذ ؟

والمفهوم أن تسمية قيس أحد ابنيه بعبد الله ، والآخر بعبيد الله — لم تكن لغوا فارغا ، ولا عبثاً ليس وراءه غاية ، وإنما كان عملا مقصودا أريد به الدلالة والتمييز بين الأخوين . والظاهر أن الشاعر كان أصغر سنا من أخيه ؛ فقد كانت سنه فى موقعة الحرة دون الخمسين ، على حين كان لأخيه إذ ذاك بنون وحفدة كما يدل عليه كلام الديوان فيما سبق عن المهاجرين من أهله.

(١) الديوان : ١٨٥

ملاحظة إلا تكن وحدها مغنية فى الموضوع فلعلها أن نصير مع التى قبلها ذات غناء فيه ، فيتألف منهما بينة قائمة أو قرينة مرجحة لما ذهبنا إليه من رأى فى اسم الشاعر واسم أخيه .

٤ — كنيته ولقبه :

إذا قيل ابن قيس الرقيات فالمراد عبيد الله ، دون أخيه عبد الله . هكذا يقول البغدادى فى خزانة الأدب[١] . فابن قيس إذاً كنية غلبت على الشاعر واختص بها ، وإن كانت بحكم بنوتهما لقيس تصلح لأخيه كما صلحت له . ويكنى الشاعر بها نفسه فى غير موطن من شعره ، كقوله :

زعم ابن قيس وهو غير مكذَّب أن القِيان برزقهن غوالى

وقوله :

رأت بى شَيبة فى الرأ س منى ما أُغَيِّبها
فقالت : أبن قيس ذا ؟ وغير الشيب يعجبها

وأما لقبه فالرقيات على خلاف فى ذلك بين الرواة . فبعض يراه لقباله ، وبعض يراه لأبيه[٢] . والخلاف هنا لا يقف عند الحقيقة التاريخية ، ولكن يجاوزها إلى الإعراب وضبط الكلمات ؛ فاللقب كما لا يخفى يجرى حين الإتباع مع الاسم على مدار المعانى

---

(١) الخزانة : ٣ : ٢٦٧

(٢) المصدر السابق

والتراكيب . ثم إن الرواة يختلفون أيضاً فى شخصيات هؤلاء الرقيات ، وفى سبب تلقيبه بهن : فكن على رأى زوجات ، وعلى رأى آخر جدات، وعلى رأى ثالث معشوقات . وهو قد لقب بهن لهذه الصلة أو لهذه أو لتلك .

ولا يسع الباحث هنا إلا أن يلاحظ أن إضافة الشعراء إلى حبائبهم فى هـذا العصر أمر معروف ، وله أمثلة مشهورة . وهو حرى إذا أن يتساءل : ماذا يمنع أن تكون هؤلاء الرقيات حبائب لابن قيس ؛ ولسن زوجات ولا جدات ، وأن تكون إضافته إليهن على مثال إضافة جميل إلى بثينة وكثير إلى عزة مثلا ؟

ولئن كان جميل قصر نفسه على بثينة، وكثير على عزة ؛ فأضيف كلاهما إلى محبوبته لهذا السبب — لقد أكثر ابن قيس فى الغزل بالرقيات مالم يكثر فى غيرهن ، ولتكون إضافته إليهن عـلى التخصيص لهـذا الاعتبار . فجملة المقطعات والقصائد الغزلية التى نظمها وسمى المعشوقات فيها نحو خمس وثلاثين : للرقيات منها عشر، ولسائر المعشوقات وهن نحو أربع عشرة — خمس وعشرون . وليس بعيدا أن يكون بعض هـذه الأسماء كناية عن هؤلاء الرقيات أو عن بعضهن .

وذكرهن صاحب الأغانى على أنهن حبائبه اللائى شبب بهن، وسكت عن الرأيين الآخرين ، لا يشير إليهما من قريب أو من

بعيد ، كأنه لا يعرفهما ، أو لا يراهما شيئاً يستحق الذكر .(١)

٥ — رحـــــلاته :

لم يـكن ابن قيس حلس بيت ، ولـكن أخاسفر ؛ يضرب هنا وهناك ، ابتغاء الرزق ؛ أو نزولا على حكم الحوادث وتقلبات الأحوال . وقد وصف نفسه بذلك فى قوله :

قالت كثيرة لى : قد كبرتَ   وما بك أليوم من داهمه
رأت رجلا شاحباً لونهُ   أخا سفر أنزع القـادمه (٢)

وقوله

لستُ بجثّامـة له كرش   يأكلما استطاع ثم يَغتَبِق (٣)

وأول ما يبدو فى غير بلاد الحجاز يبدو فى بلاد الجزيرة ، حيث يقيم هناك بنو عامر بن لؤى فى واد يقال له مَوْزَن (٤) أووادى الأحرار وأعرف من كان يقيم هناك ممن كان للشاعر بهم اتصال وثيق ، ولهم فى شعره ذكر وفى حياته عمل — عبد الواحد بن أبى سعد بن قيس ، أحد أبناء عمومته . وكان من أولاده رقية بنت عبد الواحد إحدى صواحبه ، وحرب بن عبد الواحد الذى أصاب رجـــلا من بنى ذكوان فقتله ، فكاد ابن قيس يذهب بوابه لولا

(١) الأغانى : ٥ : ٧٣
(٢) الأنزاع : الذى انحسر الشعر من جانبى جبهته . القادمة : الجبهة
(٣) يغتبق : يشرب الغبوق ، أى شراب العشى .
(٤) كان بنو عامر بن لؤى يحبون الأمويين ، وقد نزل بهم يزيد بن معاوية فى خلافته ، فسمى واديهم وادى الأحرار لهذا السبب .

شفاعة الشافعين فيه ، فإن عمير بن الحباب لم يقنع بدية القتيل ، ولم يرض بها بديلا منه ، فأغار فى عصبيته على بنى عامر ، وأخذ ابن قيس أسيرا ، وخرج به مجنوبا لا يدفع عنه أحد . ولما هم عمير بقتله وثب إليه رجل من بنى قنفذ فخلصه ، وارتحل ابن قيس فنزل الرقة ، وأنشأ فى ذلك أبياتا منها :

إن امرأ يرجو وفاء لذمة
إلى غير عوف من سليم لخائن
جزى الله يوم المرج رعلا وقنفذا
جزاء كريما يوم تبلى البواطن [1]

ومنها يخاطب زوجه :

فقلت لها : سيرى ظعين فلن ترَىْ
بعينيك ذلا بعد مرج الضيازن
وسيرى إلى القوم الذين أبوهمُ
بمكة يُخشى نابه والبراثن

وكرر القول فى هذا المعنى حيث يقول مخاطبا حليلته أيضاً :

لن ترى بعد مرج آل أبى الضيـ (م) زن ضيما ، ولن أقاد جنيباً

ودخل تكريت [2] من مدن الجزيرة أيضاً فأقام بها ، ثم كرهها

(١) المرج : مرج الضيازن الآتى فى البيت بعده . وهو موضع قرب الرقة .
(٢) تكريت : من بلاد الجزيرة على نهر دجلة . بناها سابور ، وفتحها المسلمون سنة ١٦ . وفيها ولد صلاح الدين الأيوبى .

وأنكر المقام فيها بعيداً عن عشيرته بعيداً عن السلطان وعن مجرى الحوادث العامة فى الدولة :

أتقعد فى تكريت لا فى عشيرة
شهود ولا السلطان منك قريب
وقد جعلت أبناؤنا ترتمى بها
بقتل نزار والحروب حروب
وأنت امرؤ للحزم عندك منزل
وللدين والإسلام منك نصيب
فدع منزلا أصبحت فيه فإنه
به جيف أودت بهن حروب

ومات عبد الواحد بن أبى سعد قبل أن يرحل عن الجزيرة ، فرثاه بهذه الأبيات :

ما خير عيش بالجزيرة بعد ما
عثر الزمان وبات عبد الواحد
مات الندى والجود معه وضمّنا
قبرَ الكريم الأريحى الماجد
ذهب الرجال الصالحون وبُقّيت
ضَعفَى الرجال لدى الزمان الفاسد (١)

(١) ضعفى : ضعفاء

ورحل إلى فلسطين ، يلتمس من وحشة الجزيرة أنسا ، ومن خوفها أمنا ، ومن قلقها هدوءا واطمئنانا . وله فى ذلك قصيدة طويلة ، مطلعها :

أزجرت الفـؤاد منك الطروبا
أم تصابيت إذ رأيت المشيبا ؟

ومنها يخاطب زوجه :

فاظعـنى فالحـقى بقومك إنى
لا أرى أن أقـيم فيكم غريبا
فانزلى فى بـنى كنانة تلـقَى
فـيهم العز إن دعوت قريبا
حيث إن خر سيف مولاك لم تَـخـ
شَ شيئا من الناس مَن تجنى الذنوبا
ثم لم تعـدمى إذا شئت منا
فارسا يوم نجـدة و خطيبـا
طالما قـد نزلتُ فى عَدَوات الـ
أرض أقرو بك المكان الخصيبا (١)
حـين للعيش لذة ولنـا حا
ل ، ولم تجعل الخطوب خطوبا

---

(١) عدوات الأرض . طياتها الواحدة عداة . أقرو : أتتبع .

فارى الدهر قــد تغير بالنـا
س ، وقـد كانت الشعوب شعوبا
لن ترَى بعـــد مرج آل أبى الضـ
يزن ضيما ولن أقاد جنيبا
حَلـَق من بنى كنانة حولى
بفلسطين يسرعون. الركوبا
من رجال تفنى الرجال وخيــل
رُجُم بالقنــا تسد الغيوبا (١)
لا يبالون من أقام إذا ما
كشفوا بالسيوف يوما عصيبا

ورحل إلى سجستان (٢) ، فمدح طلحة الطلحات (٣) بقصيدة ، ورثاه باخرى . ويظهر أن رحلته اليها كانت من فلسطين ؛ لقوله فى قصيدة المدح :

وسَرَت بغلتى إليـــك من الشـا
م وحَـوْران دونهـا والعوير (٤)

والظاهر أنه رحل بعد ذلك إلى مكة مناصرا لابن الزبير على الأمويين ، فقد كان بالجزيرة حين وقعت وقعة الحرة ، ولم يكن

(١) الغيوب . من معانيها الأراضى المطمئنة
(٢) سجستان : ناحية واسعة بين فارس والسند ، فتحها عمرو بن عاصم فى خلافة عمر
(٣) أحد الأجواد المشهورين فى الاسلام
(٤) حوران : كورة بدمشق ، واسم موضع ببادية السماوة

ابن الزبير يؤمئذ قد اشتد امره ورجحت كفته ، فكأن المدة التى قضاها الشاعر بعد ذلك فى الجزيرة وفلسطين وسجستان هى المدة التى استفاضت فيها دعوة ابن الزبير ، وتحولت خلالها الأحوال بما يقوى الرجاء فى مصير الخلافة إليه .

ومهما يكن من أمر فقد مدحه الشاعر فأقل المدح ؛ إذ لم يقل فيه غير قصيدته التى مطلعها :

زودَتْنا رقية الأحزانا — يوم جازت حُمولها سكرانا[١]

وهى مع ذلك ليست طويلة ، فعدة أبياتها عشرة ، وقد ذهب الغزل منها بثمانية ولم يدع للمدح سوى هذين البيتين :

وابن أسماء خير من مسح الر — كنَ فعالا وخيرهم بنيانا

وإذا قيل من هِجان قريش — كنت أنت الفتى وأنت الهجانا[٢]

وسواء أكان المروى هنا من المدح هو كل ما قاله الشاعر منه فى هذه القصيدة أم كان ما قال أكثر مما يروى — لاجرم أنه مدح عبد الله بأقل مما مدح به أخاه مصعبا ، فكأنه لم يأنس بعبد الله ، ولم يجد عنده مبتغاه ، ولو أنه كان صاحب الدعوة الأصيل ومرادها المأمول ؛ لاشتهاره بالبخل وغلبة الانقباض عليه . وكأنما وجد فى مصعب عوضا خيراً منه ؛ إذ كان الأخوان على

---

(١) سكران : واد بمشارف الشام

(٢) الهجان : خيار كل شىء وخالصه .

خلاف فى السجايا والصفات ؛ لهذا لزمه ، وأخلص له ، حتى كاد يعرف به ويضاف إليه ، وقال فيه من المدائح والمراثى ما لم يقل مثله فى أحد سواه ، لا من ناحية المقدار وحده ، ولكن من ناحية القيمة الفنية أيضا .

ومما مدحه به طويلته المشهورة التى أولها :

أقفرت من عبد شمس كَدَاء   فكُدَىٌّ فالركن فالبطحاء[١]

وهى أطول قصائده كلها ، وأكثرها فنونا ، وأجلها شأنا ، وأوسعها مجال افتخار .

ومنها فى مدح مصعب :

إنما مصعب شهاب من الله   ه تجلت عن وجهه الظلماء
مُلكه ملك قوة ليس فيها   جبروت ولا به كبرياء
يتقى الله فى الأمور وقد أفـ   ـلح من كان همّه الاتّقاء

ومنها يهدد الأمويين . ويكاشفهم بالعداوة والبغضاء :

كيف نومى على الفراش ولما   تشمل الشامَ غارة شعواء ؟
تذهل الشيخ عن بنيه وتبدى   عن بُراها العقيلة العذراء[٢]
أنا عنكم بنى أمية مزورٌّ (م) وأنتم فى نفسىَ الأعداء

وخرج ابن قيس مع مصعب إلى العراق ، فلما شخص عبد الملك لقتاله وخرج إليه مصعب كان ابن قيس معه أيضاً ،

---

(١) كدى وكداء : جبلان بمكة ، أولها ، بأعلاها ، والآخر بأسفلها . بطحاء مكة : ما حاز السيل من الردم إلى الحناطين (موضعين) ، يمينا مع البيت ، ليس الصفا منها .

(٢) البرة : الخلخال

حتى إذا استفسد عبدالملك أنصار مصعب ، ورأى مصعب، غدرهم به وانصرافهم عنه ، وأيقن أنه لا محالةمقتول — دعا ابن قيس إليه ، فأعطاه مالا كثيراً ، وأذن له فى الانصراف إلى حيث يريد ، لم تلهه عنه بوادر المحنة ولا مشاغل التأهب للقتال ، لكن الرجل أبى إلا أن يبقى معه مقيما على الوفاء له حتى يقضى الله أمره ، ويستبين سبيل الأمير ما يكون ؟

والمفهوم أن الأمير لم يكن له من ابن قيس جندى مقاتل ، ولكن لسان قائل ، وصديق صدوق .

وآية ذلك أننا نرى الأمير أولا وقد أبى التسليم وإلقاء السلاح يدعو ابن قيس ، فيجزل صلته ، ويأذن له فى مفارقته . ونظن أنه ما كان ليفعل ذلك وابن قيس من حملة السلاح المحاربين .

ونراه ثانياً وقد أراد ابنَ قيس — لا يخاطبه خطاب الحاضر القريب ، ولكن يدعوه دعوة الغائب يكون على الأقل فى ظاهر الميــدان .

ونرى الشاعر ثالثا وقد أبى إلا البقاء مع الأمير — يقول له : « والله لا أريم حتى أرى سبيلك »[1]، ولا يقول : « ...حتى أهلك معك . أو أهلك دونك » مثلا .

ونراه رابعاً لا يشهد مصرع الأمير ، ولكن تجيئه الأنباء به وهو منه بعيد ، كما يفهم من قوله فى رثائه :

---

(١) الأغانى : ٥ : ٧٧

أتاك بياسرَ النبأ الجليل
فليلك إذ أتاك به طويل
أتاك بأن خير الناس إلا
أميرَ المؤمنين بها قتيل
فقلت لمن يخبرني حزينا
أتنعيُ مصعبا ؟ غالتك غول [1]
فإن يهلك فجدكم شقي
وعيشكم وأمنكم قليل

والنتيجة التى ننتهى إليها ، ويطيب لنا أن نسجلها هنا أن ابن قيس الشاعر قد ربط مصيره بمصير أميره المخذول عن طواعية واختيار ، وإنه ليعلم أن مصيره الموت المحتوم : لا حيلة فى دفعه ، ولا أمل معه فى نجاة .

ولو شاء لكان له فى مفارقته رخصة مسوغة ، بل شفاعة مقبولة ؛ فقد كان على ما أسلفنا رجلا مدنيا بلغة العصر الحاضر ، وقد أعفاه الامير من أثقال الصحبة والملازمة ، وأذن له فى الانصراف إلى حيث يشاء ، إذ لا نفع لاحد فى بقائه معه : فإنما هى التهلكة يقاد إليها ، ويلقى فيها لغير سبب ولاغاية . وماذا فى هذا من نفع له أو للأمير أو لسواهما ممن لا يتمنون له الموت ؟ لكن الرجل آثر التى هى أجمل صنعا ، وأحمد ذكراً ؛ فكان له ما أراد .

(١) غالته غول : دهته داهية .

ولم يسع ابن قيس حين نعى الامير إليه إلا أن يفر ، ابتغاء النجاة برأسه ، فقد كان يعلم أن القوم لن يغفروا له تحريضه عليهم وامتداحه لخصومهم ، وأنهم لا محالة قاتلوه إن ظفروا به ، فدخل الكوفة ، واستأمن امرأة من أهلها فأمنته . وهنا ندع ابن قيس نفسه يحدثنا عن قصته معنا على ما جاء بالاغانى فى إحدى روايتيه. قال : « فأقمت عندها سنة تروح وتغـــدو على بمـا أحتاج إليه ، ولا تسألنى عن حالى ولا نسبى ، فبينا أنا بعد سنة مشرف من جناح إلى الطريق — إذا بمنادى عبد الملك ينادى ببراءة الذمة ممن أصبت عنده ، فأعلمت المرأة أنى راحل ، فقالت : لا يروعنك ما سمعت ، فإن هذا نداء شائع منذ نزلت بنا ، فإن أردت المقام ففى الرحب والسعة ، وإن أردت الانصراف أعلمتنى ، فقلت لهـا : لا بد لى من الانصراف فلما كان الليل قدمت إلى راحلة عليها جميع ما أحتاج إليه فى سفرى ، فقلت لها : من أنت — جعلت فداك — لا كافئك؟ قالت : ما فعلت هذا لتكافئنى ، فانصرفت ، ولا والله ما عرفتها إلا أنى سمعتها تدعى باسمها كثيرة ، فذكرتها فى شعرى. »(١)

ولعل الشاعر وقد عرف اسمها ومحلتها لم ينس أن يسأل عنها ، ويعرف نسبها وكثيرا من أحوالها ، فقد ذكر فى بعض شعره فيها أنها أنصارية من الخزرج :

---

(١) راجع الأغانى : الجزء الخامس : ٧٧ ، ٨٤

ذكرتني حلف النبي وقد تعـ ـلم حلفي وحلفها الأنصار
لم أخنها فتطلب الوتر مـني عندذي الذحل تطلب الأوتار

وقال :

لججت بحبك أهل العراق ولولا كثيرة لم تلجج
فليت كثيرة لم ألقها كثيرةَ أخت بني الخزرج
وما كلمتنا ولكنها جلت فلقة القمر الأبلج

وقد لهج بذكر اسمها في خمسة مواطن من شعره ، وترك لنا في كل موطن خطرات عنها ولمحات لحال من أحوالها . ونستطيع من جملة هذه الخطرات واللمحات أن نخلص بصورة لها مجملة ، لكنها لاتخلو من إحاطة وشمول .

فهي في شخصها قسيمة معجبة ، سوية الخلق ، صحيحة البدن ، بيضاء يخالط بياضها صفرة ، حوراء العينين ، سابغة الشعر ، ريا العود ، لا طويلة فارعة ، ولا قصيرة مقتحمة ، ولكن ربعة بين ذلك .

ظعنت لتحزننا كثيره ولقد تكون لنا أميره
أيام تلك كأنها حوراء من بقر غريرة[1]
شبت أمام لِداتها بيضاء سابغة الغديره
ريّا الروادف غادة بين الطويلة والقصيره

(١) غريرة : شابة لا تجربة عندها .

حلت فلاليج السـوا د وحل أهلى بالجزيره[١]
قذفت بها غَـرب النوى فعسى تكون لنا مريره[٢]
صـفراء كالسِّيَراء لم تشمـط عذوبتها بحورة[٣]

وهى فى مالها ثرية ذات مال كثير ، وفى عيشها حضرية منعمة من حضريات منعمات ، ما عانين شظف البادية ، ولا عالجن عملا من أعمال البدويات هناك . قال :

شب بالعال من كثيرة نار
شـوقَتنا وأين منا المزار[٤]
أوقدتها بالمسك والعنبر الرطـ
ب فتاة قد ضاق عنها الازار
تتقى بالحرير من وهج الشـمـ
س وخز العـراق والأستار
بعقير الرومى منهـا محل
ولها بالكُـويفتين ديار[٥]

(١) فلاليج السواد: قراه، الواحدة فلوجة.
(٢) مريرة : عزيمة رجمة .
(٣) السيراء: الذهب الخالص. تشمط : تخالط بحورة: مرارة .
(٤) العال: الأنبار .
(٥) الكويفة: مكان دون الأنبار

وقال :

من نسوة كالبَيض فى الـ أدْحى بالدَّمَث المطيره[١]
لم يصطلين غضى ولم يضربن للبهم الحظيره[٢]

وهى فى سلوكها مصونة محتشمة ، عاشرها الشاعر عاما أو أكثر من عام فى منزل واحد لا يشركهما فيه غير ابنتها على ماجاء فى الرواية الأخرى لقصة مقامه عندها،فما تصبته ،ولاقاسمته الحب :

عاد له من كثيرة الطربُ فعينه بالدموع تنسكب
كوفيـــة نازح محلتها لاأمم دارها ولا سَقَب[٣]
والله ما إن صبت إلىّ ولا يُعلم بينى وبينها سبب
إلا الذى أورثت كثيرة فى الـ قلب وللحب سورة عجب

انطلق ابن قيس يريد مكة ، فجاءها ليلا ، ولما دخل على أهله بكوا وولولوا، وأخبروه أن السلطان جاد فى طلبه لا يكاد يسكت عنه ، فأقام فيهم ليلته حتى السحر ثم خرج إلى المدينة ، فبلغها عند المساء ، فقصد إلى عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ، ودخل عليه متلثما يحذر أن يعرفه الناس ، فجلس مع أصحابه ، وجعل يتعاجم فى كلامه . ولما انصرف الناس كشف له عن وجهه ، فقال : ابن قيس ؟ قال الشاعر فقلت : ابن قيس ، جئت عائذاً بك . قال ·

(١) الأدحى : مبيض النعام فى الرمل . الدمث : المكان اللين ذو الرمل ,
(٢) البهم : أولاد البقر والمعز والضأن .
(٤) أمم : سقب : قريب .

ويحك ! ما أجدهم فى طلبك ، وأحرصهم على الظفر بك ، ولـكنى سأكتب إلى أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان ، فهى زوجة الوليد بن عبد الملك ، وعبد الملك أرق شىء عليها . فـكتب إليها يسألها أن تشفع له إلى عمها ، وكتب إلى أبيها يسـأله أن يكتب إليها كتاباً يسألها الشفاعة ، فدخل عليها عبد الملك كما كان يفعل وسألها :هل من حاجة ؟ فقالت: نعم لى حاجة ، فقال : قد قضيت كل حاجة لك إلا ابن قيس الرقيات . فقالت : لا تستثن على شيئاً فنفح بيده فأصاب خدها . فوضعت يدها على خدها . فقال لها : يا بنيتى ارفعى يدك ، فقد قضـيت كل حاجة لك وإن كانت ابن قيس الرقيات . فقالت : إن حاجتى ابن قيس الرقيات تؤمنه . فقد كتب إلى أبى يسألنى أن أسألك ذلك . قال : فهو آمن . فمريه أن يحضر مجلسى العشية (١)

وهذه القصة برغم ما فى بعض أجزائها من الصنعة تدل على أن الخليفة لم يرد شفاعة أم البنين فى ابن قيس الرقيات .

وما نظن أن أم البنين كانت تجهل ابن قيس ، ولا أنها كانت فى الاهتمام بأمره تحتاج إلى وصاة أبيها به . وهى حقيقة أن تذكره إذا ذكر لها ، وأن تشفق عليه حين تعلم مقامه من الخليفة ، فإن له معها لشأناً يبعد أن تنساه أو أن تنـكر من أمره شيئاً .

(١) الأغانى : ٥ : ٧٧ و ٧٨ .

لقد شبب بها فى خمس قصائد ومقطعات من شعره . وكان فيها كلها لبقا كيسا ، بل رفيقاً متلطفا ، كأنما كان يحاذر أن يحرجها ويثير سخطها عليه ، مع كراهته لأهلها وسوء رأيه فيهم .

كان همه فى وصفها أن يبرز محاسنها . ويدل على مواطن الفتنة منها ، وأن يجهر بإعجابه بها . وشوقه إليها . ولكن فى غير سخف ولا إسفاف . وكان همه فى القصص عنها أن يروى الوقائع ويصور الخواطر . ولكن دون إفحاش ولا مجاهرة بفسوق كقوله :

أمَّ البنين سلبتنى حلمى ... وقتلتنى فتحمــــلى إثمى
وتركتنى أدعو الطبيب وما ... لطبيبكم بالداء من علم
بالله يا أم البنــين ألم ... تخشَى عليك عواقب الاثم
لله درك فى ابن عمك إذ ... زودته سُقْـاً على سُقْـم
وتركته يمشى وليس له ... عقل يعيش به مع الحزم
جنية الأعلى وأسفلها ... وَحِل مؤزَّره من اللحم
وبوجهها ماء الشباب ولم ... تُقبل بملعون ولا جهم
لم تدر ما نَدْه الجمال ولم ... تربُق برِبْق أول البَهم (١)

وكقوله يصف ليلة عابثة ، يزعم أنه قضاها معها ، فاستمتع بها واستمتعت به ، ولكن فى النوم لا فى اليقظة ، وفى دنيا الأحلام لا دنيا الواقع والحس :

(١) نده الجمال : زجرها . ترقِ البهم : تجعل رءوسها فى الربق وهو حبل فيه عدة عرى يشد به البهم

ألا هزئت بنا قرشيـ (م) ـة يهتز موكبها
رأت بى شيبة فى الرأ س منى ما أغيبها
فقالت : أبن قيس ذا ؟ وغير الشيب يعجبها
رأتنى قد مضى منى وغضات صوا حبها

ثم قال :

فدع هذا ، ولكن حا جة قد كنت أطلبها
إلى أم البنين متى يُقَرِّب بها مقربها
أتتنى فى المنام فقلـ ـت هذا حين أعقبها
فلما أن فرحت بها ومال على أعذبها
شربت بريقها حتى نهلت وبت أشربها
وبت ضجيعها جذلا ن تعجبنى وأعجبها
وأضحكها وأبكيها وألبسها وأسلبها
أعالجها فتصرعنى فأرضيها وأغضبها
فكانت ليلة فى النو م نسمرها ونلعبها
فأيقظنا مناد فى صلاة الصبح يرقبها

ومثل هذا الغزل جدير ألا يسخط المرأة فى ضميرها إذا هو أسخطها فى ظاهر الأمر ؛ بل لعله أن يعجبها ويصادف هوى نفسها لأن فيه إرضاء لطبيعة الأنثى . ومجاوبة لنوازع التيه والإدلال فيها حين تغريها بهما الملاحة والفتون .

ولا ندرى أكان عبد الله بن جعفر يعرف ذلك ، ويقصد إلى استغلاله والإفادة منه أم لا ؟ ولكن الذى لا شك فيه أنه كان فى اختيار أم البنين لهذه المهمة موفقا كل التوفيق ؛ فما كان ليقدر عليها وينجح فيها غيرها ، لمكانها من عبد الملك ، وسابقة ابن قيس إليها بما قال فيها من غزل معجب رقيق .

فقد كان حنق القوم عليه شديدا ، ورغبتهم فى الانتقام منه ملحة دائمة : لا يصيبها وهن ولا انقطاع . لم يكفهم أن يتنسموا أخباره ، ويترقبوا ظهوره ، فوكلوا بأهله من يرهقهم بكثرة الاستخبار والالحاف فى السؤال ، وأطلقوا المنادين يصيحون فى الناس كل يوم عاما أو يزيد : أن قد برئت الذمة ممن يكون ابن قيس عنده ؛ تجنيا فى الاتهام ، وإسرافا فى العقوبة والمؤاخذة .

فالذى يتصدى للشفاعة فيه ، والتماس الأمان له — إنما يتصدى لأمر جسيم ، يشبه أن يكون من الأمور المتصلة بأمن الدولة وضمان السلامة لها واستقرار الأحوال فيها . فلم يكن ابن جعفر للشفاعة فيه كفئا ، ولا له بها طاقة . وهو حين لجأ فيه إلى أم البنين وإلى أبيها يستعينه عليها — إنما يقدر الأمر حق قدره ، وينزله منزلته من الخطر ، ويحتال له بحيلته التى لا جدوى فى سواها ولا غناء .

وفى هذا كله ولا ريب — دلالة إن تكن مجملة فهى قوية

بليغة ، تعبر عن مبلغ ما عاد على الزبيريين منه من ربح ، ومبلغ ما حاق منه بالأمويين من خسران .

ويقص صاحب الأغانى نبأ هذه الشفاعة فى رواية أخرى ، يعنينا منها قوله : قال ابن قيس لابن جعفر : اسأل أمير المؤمنين فى أمرى ؛ قال نعم ، فإذا دخلت إليه معى ودعا بالطعام ، فكل أكلا فاحشا . فركب ابن جعفر ، فدخل معه إلى عبد الملك ؛ فلما قدم الطعام جعل يسىء الأكل ؛ فقال عبد الملك لابن جعفر : من هذا ؟ فقال : هذا إنسان لا يجوز إلا أن يكون صادقا إن استبقى وان قتل كان أكذب الناس ؛ قال : وكيف ذلك؟ قال : لأنه يقول :

ما نقموا من بنى أمية إلا (م) أنهم يحلمون إن غضبوا

فإن قتلته لغضبك عليه أكذبته فيما مدحكم به ؛ قال : فهو آمن ، ولكن لا أعطيه عطاء من بيت المال ، قال : ولم وقد وهبته لى؟ فأحب أن تهب لى عطاءه أيضا كما وهبت لى دمه وعفوت لى عن ذنبه ؛ قال : قد فعلت . (١) .

ويقتصر ابن قتيبة فى الشعر والشعراء على هـــذه الرواية ، ولكنه يرويها فى إيجاز ، ومع بعض تغيير فى العبارة ، ثم يذكر أن عبد الملك لم يقبل أن يأخذ ابن قيس مع المسلمين عطاء (٢) :

(١) الأغانى : ٥ : ٨١ ، ٨٢

(٢) الشعر والشعراء : ٢١٢

ولا أدرى لماذا لم يشأ ابن جعفر أن يقدم صاحبه إلى الخليفة بالقـــول ، مع أنه الوسيلة ليس أقرب منها ، ولا أحق بها فى هذا المقـام

كذلك لا أدرى لماذا آثر له أن يكون تكلف الشره وإخاش الأكل هو العمل الذى ينبغى أن يأخذ به ليلفت نظر الخليفة إليه مع أن الشره من أقبح العيوب ، وأدلهـا على سقوط الهمة وقلة الغناء ، وأجلبها للزراية والإنكار . وجدير بمن ابتلى به أن يخفيه ويتكلف خلافه على الأقل مع الناس ، فكيف به فى حضرة خليفة عظيم ، ومن رجل مغضوب عليه ، أهدر الخليفة دمه، وأبرأ الذمة ممن يؤويه ؟

سؤالان لا نستطيع دفعهما ، ولا نجد لهما جوابا مقنعـا ، ولانجدفى النفس تبعا لذلك أو نتيجةله ثقة بهذه الرواية ولا اطمئنانا .

على أن الغاية التى نتتهى إليها من هاتين الروايتين واحدة على كل حال : أن الخليفة قد رضى عن ابن قيس ، وقبل الشفاعة فيه ، وأذن له أن يدخل مجلسه ، ويقول مايريد .

« فحضر ابن قيس ، وحضر الناس حين بلغهم مجلس عبد الملك فأخر الإذن ، ثم أذن للناس ، وأخر إذن ابن قيس الرقيات حتى أخذوا مجالسهم ، ثم أذن له ، فلما دخل عليه قال عبد الملك : يأهل الشام ، أتعرفون هذا ؟ قالوا : لا ، فقال : هذا عبيد الله ابن قيس الرقيات الذى يقول :

كيف نومى على الفراش ولما تشمل الشام غارة شعواء
تذهل الشيخ عن بنيه وتبدى عن خدام العقيلةُ العذراء ؟[١]

فقالوا : ياأمير المؤمنين اسقنا دم هذا المنافق . قال : الآن وقد أمنته وصار فى منزلى وعلى بساطى ؟ قد أخرت الإذن له لتقتلوه فلم تفعلوا » [٢]

ولا ندرى كيف يمكن أن يقول عبد الملك مثل هذه القولة الأخيرة ، التى لا تنطوى على شىء من الحزم والحكمة ، ولا تدل على شىء من الاعتزاز بالسلطان ؟

وأى حزم أو حكمة فى أن يدعو الخليفة رعيته إلى نقض حكم أبرمه ومخالفة أمر أمضاه ؟ بل أى حزم أو حكمة فى أن ينتظر من رعيته أن تجرى معه على سنن العصاة المخالفين ، فتخفر بذمته، وتنقض عهده ، مع أنه لا عصيان هناك ولا خلاف ؟

وأى اعتزاز بالسلطان فى أن يجهر الخليفة فى أحد من رعيته بأمر وهو يضمر خلافه ولو كان امرأ ذا صولة وشأن خطير ؟ فكيف بابن قيس حين يجيئه طائعا مستسلما ، لا حول له ولا قوة إلا بشفاعة الشافعين إليه من خاصته وذوى الكرامة والخطر لديه؟

---

(١) الخدام : الخلاخيل ، واحدها خدمة بالتحريك . وهى فى نية خدامها ، فكأنه قال : وتبدى عن خدامها العقيلة .

(٢) الأغانى : ٥ : ٧٨

ومهما يكن الواقع فقد استأذن الشاعر الخليفة أن ينشده مديحه فيه ، فأذن له ، فأنشد قصيدته التى مطلعها :

عاد له من كثيرة الطرب　　　فعينه بالدموع تنسكب

ويظهر أن الخليفة لم يسمع من الشاعر كل ما كان يحب أن يسمع منه فى هذا المقام ، إن لم يكن قد سمع ما لم يكن يحب .

فهو إذ أبى أن يقر بذنبه ، ويعتذر منه — لم يقل فى الخليفة مثل ما كان يقول فى مدح أعدائه ، ولم يحمد دولته بمثل ما حمد به دولتهم . بل لعله لم يوفق فضلا عن ذلك فى أحاديث الهوى والذكريات التى افتتح بها القصيدة ، فقد تخير كثيرة موضوعا لنسيبه وحديث غرامه . وهى السيدة التى آوته ، وحالت بين السلطان وبينه ، وإنها لتسمع كل يوم نداء المنادى ببراءة الذمة عمن يؤويه .

ثم هو إذ خلص من الحديث عن هذا الماضى الذى لا طيب فيه ، ولا كياسة فى عرض شىء من أحداثه على هذا النحو — لم يعد إلى الخليفة فى مقامه المشهود ، فيترضاه ، ويتلمس مودته وعطفه ولكنه تابع الرجوع إلى الوراء ، ومضى مرحلة أخرى فى الماضى الثقيل ، فراح يمدح يثرب ويحن إلى طيب عيشها ولذاذة الإقامة فيها . ولكن متى ؟ أفى عهد الخليفة وإبان دولته ؟ أم فى عهد السابقين من أهله وإبان دولتهم ؟ هيهات فما ينبغى فى عهده وعهدهم

أن يستطاب عيش أو تحمد إقامة فى بلد من بلاد الله . إنما كان ذلك وقريش متفقة ، والشمل مجتمع ، يوم لا أمويون هنالك ولا غير أمويين .

ياحبــذا يثرب ولذتها	من قبل أن يهلكوا ويحتربوا
وقبل أن يخرج الذين لهم	فيها السناء العظيم والحسب
بَغَت عليهم بها عشــيرتهم	فعوجلوا بالجزاء واطُّلبوا

جميل أن يعرف الشاعر فضل كثيرة عليه، وأن يجزيها به جهد ما يستطيع ، وجميل أيضا أن يثنى خيرا على عهد اجتماع العرب ، وأن يستطيب الحياة فى ظل هذا الاجتماع ، وأجمل من هذين أن يضع كليهما بالموضع الذى يطلبه ويليق به . وكلاهما فى هذا المقام غير مطلوب ولا لائق .

فالقادر المتمكن إذا هاجه الغيظ ، وأضراه الشر بالانتقام يكون حين الإعتاب مرهف الحس ، يقظ الملاحظة ، سريعا إلى الارتياب وسوء الظن . وربما مال بالكلام عن قصده ، وأوله بما لا يحتمل من أوجه التأويل . وعبد الملك نقادة أريب ، وجبار متسلط ، شديد السورة ، قــوى الشكيمة . فابن قيس حقيق أن يتمثل له فى قصيدته هذه ماكرا مداهنا ، هواه فى الحقيقة مع الماضى فهو يتشبث به ، ويحن إليه ، ويخلص له بمقدار ما يبغض الحاضر ويضيق بأهله ، أو بالحرى يحب غير الأمويين على التعميم، ويبغض

الأمويين على التخصيص ، إلا أنه مهيض مغلوب ، دالت دولته ، وانقضى زمانه ، وتقطعت به الأسباب ؛ فـــلا مفر له من طاعة السلطان القائم وإعلان الولاء له . وإذا كان الناس يصدرون فى ذلك عن إيمان وإحساس فلا مانع أن يعمل عملهم بالتظاهر والنفاق ولـكنه تظاهر نمام ونفاق مفضوح ، هيهات أن يخفى عليه أمرهما إذا كان فيه على بعض الناس خفاء .

وكأنما كان الشاعر يزيد الخليفة حنقا كلما زاده إنشادا، وكأنما بلغ الحنق غاية مداه ، وتهيأت الفرصة لانطلاق بوادره حين وصل فى الإنشاد إلى قوله:

إن الأغر الذى أبوه أبو الـ   ـعاصى عليه الوقار والحجُب
يعتـــدل التاج فوق مفرقه   على جبـــين كأنه الذهب

فما كاد يسمع قوله هذا حتى صاح به : يابن قيس تمدحنى بالتاج كأنى من العجم ، وتقول فى مصعب :

إنمـا مصعب شهاب من اللـ   ـه تجلت عن وجهه الظلمـاء
ملـكه ملك عزة ليس فيـــه   جـــبروت منه ولا كبرياء

أما الأمان فقد سبق لك ، ولـكن والله لا تأخذ مع المسلمين عطـاء أبدا .

وهو كلام مغيظ مغلوب ، لم يستطع أن يكظم غيظه ، ولاأن يروض نفسه على التى كانت أجمل وأكرم ؛ فيمن عليه بالمال كما

من عليــــه بالحياة ، بل إنه لم يستطع أن يخفى ندمه على الأمان ، ولا أن يرفق بنفسه فيه حين عز إخفاؤه عليه ، كأنما بدا له فى الأمان رأى غير الرأى ؛ فلم يبق منة فاضلة ، يستديم بها الشكر ، ويستحق عليها طيب الذكر ، ولـكنه ضار ورطة محرجة ، ساقته إليها دوافع التسرع والطيش . وإذا كان لا يجد السبيل إلى الخلاص منها الآن ، ولا يستطيع بسبب ذلك أن يستأنف النظر والتدبير من جديد — فهو على الأقل حقيق ألا يفرط فيما أبقت المصادفة في يده من وسائل المؤاخذة والحرمان . فليمنعه إذا أن يأخذ شيئاً من بيت المال مع أصحاب الأعطيات .

ونعود إلى البيت الذى عابه الخليفة على الشاعر ، لنرى ماذا فيه ؟ وماذا فى مأخذ الخليفة عليه من سداد ؟

ورأيي أن البيت فى نفسه سليم لا عيب فيه من ناحيتى الحقيقة والواقع ؛ فهو يريد أن للتاج فى رأس الخليفة مجالا ، وأن له عليه اعتدالا ؛ من قدم عهده ببيته وطول ملازمته لرءوس سلفه ، حتى صار له فيهم سمة موروثة تنتقل فى الأعقاب . ويريد أن للتاج على جبينه المشرق الوضيء رواء وبهجـــة ؛ بمـا بينهما من الملاءمة وحسن الاتساق .

ومعنى هذا وذاك أن الملك فيهم عريق غير محدث ، وأنه فيهم أيضا أتم زينة وأجمل جمالا .

ولا شيء فى ذكر التاج ، ولو أنه ليس مما تعرف العرب به ؛ فليس فى الإسلام عربى وعجمى ولا أسود وأبيض ، ولكن فيه أن المؤمنين إخوة ، وأن لحمة الدين أقوى من لحمة النسب ، وأنها لا تعرف الأجناس والأوطان . والأمويون حين خالفوا نهج الخلفاء الراشدين ، وجعلوا الخلافة فيهم ميراثا — قد صاروا إلى الهرقلية فى بعض مظاهرها من حيث يعلمون أو لا يعلمون .

وينكر عبد الملك أن يمدحه الشاعر بالتاج ؛ فإنما تمدح به العجم لا العرب . وهو فى هذا غير متجن ولا معتسف ، ولكنه يستجيب لنزعة المحافظة والعصبية لخصائص العرب التى عرف بها ساسة الأموية ، وخاصة بناتها المؤسسين .

فالبيت من وجهة نظر الخليفة ليس بذى شأن ، بل ليس مما يجمل أن يمدح به الخلفاء ، ولا سيما حين يقرن بنظيره مما قال الشاعر فى مصعب بن الزبير .

ويبدو أن هذا الخلاف لم يكن بين الخليفة والشاعر وحده ، ولكن بينه وبين آخرين من الأمراء والشعراء أيضا .

فهذا أيمن بن خُرَيم يمدح بشر بن مروان بالتاج، فلا يبهم كابن قيس ، ولا يوجز إيجازه ، ولكن يوضح الرأى ، ويبسط القول على ما يريد ، فيجعل تاج بشر كتاج بنى هرقل نفاسة وعتقا ، ثم لا يجد أنه قد أدى واجبه ، وقال فى صاحبه كل ما ينبغى أن يقال ؛

فيزيد أنه لا يشبه تاج هذا العربى بتاج هؤلاء الأعاجم على علاته، وفى عموم أحواله، ولكن يشبهه به حين يجلوه أصحاب شأنه لأعظم الأعياد وأكرم المناسبات، فإنما يليق التاج به، ويأتلف مع جبينه أشد ما يكون تألقا وصفاء، فيلتقيان إذ ذاك على وفاق، وفى جمال اتساق، وإن كانت لتتخالف الوجوه والتيجان على رءوس الآخرين.

أميرَ المؤمنين أقم ببشر عمود الحق إن له عمودا
ودع بشرا يقومهم ويُحدث لأهل الزيغ إيمانا جديدا
كأن التاج تاج بنى هرقل جلَوه لأعظم الأيام عيدا
على ديباج خدَّى وجه بشر إذا الألوان خالفت الخدودا

هذا ما قاله أيمن بن خُرَيم فى بشر بن مروان. ولسنا نعلم مع ذلك أن بشرا أخذ أيمن بما قال، أو نقم منه شيئا. ولكن الذى نعلمه أنه أعطاه عليه مائة ألف درهم [1].

وعلى كل حال لا نرى من الإنصاف ولا من أصالة الرأى أن يحكم على القصيدة أو الشاعر بالبيت أو البيتين، بالغا ما بلغا من الإصابة والتوفيق، أو من الخطل والانحراف؛ فما ينبغى أن يغنى البيت الجيد عن القصيدة الرديئة، ولا أن يجنى البيت الردىء على القصيدة الجيدة.

(١) الأغانى : ١ : ٣٢١، ٣٢٠

وكان يحسن وقد سمع الخليفة البيت السالف ؛ فثار وغضب ـ أن يذكر معه الذى قبله . وهو :

خليفة الله فوق منبره   جفت بذاك الأقلام والكتب

فلعله لو فعل أن يسكن ويرضى .

وليس عبد الملك فى المعروف من حاله بالرجل الذى يجهل ذلك أو يخفى عليه من أمره شىء ، لكن ابن قيس وقد جانبه التوفيق فى مقام الإعتاب على ما قدرنا — قد فعل التى لا يكاد يقبل معها صرف ولا عدل عند أصحاب الشكائم القوية والبأس الشديد . ويلوح أن ابن قيس مهما يأت بعدها من آيات المدح وعرفان المزية والفضل — لا يستطيع أن يغير رأى الخليفة فيه ، ولا أن ينزع شيئا مما بدر إلى نفسه عنه .

ونلاحظ أن البيت الذى عابه الخليفة على الشاعر — لم يكن خاتمة القصيدة ، فلا يزال هناك أبيات أخر ، منها :

أحفظهم قومهم بباطلهم   حتى إذا حاربوهم حربوا[1]

تجردوا يضربون باطلهم   بالحق حتى تبين الكذب

وتدل وقائع الحال وفحوى الحديث على أن الخليفة حين قطع عليه الإنشاد لم يمكنه من العودة إليه ؛ فقد انتقل دون توقف ولا إمهال من نقد شعره واستصغار مدحه إلى تقرير مصيره والفصل فى قضيته ، فقد انتهت المقابلة إذن وانفض الناس أو أخذوا فى شأن جديد .

(١) حرب : سفه واشتد غضبه

على أن بعض المروى من أنبائه وأشعاره يدل على أن الخليفة قد غير رأيه فيه ونظره إليه ؛ فأصبح يعظم له الهبات ، ويفسح له في الحديث، ويمنحه من المودة مالا يكون إلا بين الأصفياء المتوادين.

روى الأغانى أن عبد الملك قال له يوما : ويحك يابن قيس ، أما اتقيت الله حين تقول لابن جعفر :

تزور امرأ قد يعلم الله أنه   تجود له كف قليل غرارها [1]

ألا قلت : قد يعلم الناس ، ولم تقل : قد يعلم الله ؟ فقال ابن قيس : قد والله علمه الله ، وعلمته أنت ، وعلمته أنا، وعلمه الناس[2]

وهذا كما لا يخفى أشبه بحديث صديقين منه بحديث شاعر وخليفته أو مادح وممدوحه . فالخليفة فيه حفى بالشاعر ، غيور على شعره ، طامع فى الاستئثار به أو بخير ما فيه ؛ فهو لذلك ينقده ، ويحاول أن يوجهه ، ثم هو ينفس على ابن جعفر أن يكون فى رأيه وفى شعره بهذه المنزلة من النوال وإسداء المعروف . والشاعر يقف منه موقف الند لنده : لا يتهيبه ، ولا يريد أن يجامله أو يتلطف فى خطابه ، فهو يستمسك برأيه فى ابن جعفر ، ويدفع عنه ، ويشهد الله والخليفة والناس عليه .

ونرى الشاعر يمدحه بقصيدتين أخريين غير التى مدحه بها الأولى مرة : إحداهما ميمية ، ومطلعها :

---

(١) قليل غرارها : يريد أن منعها المعروف قليل

(٢) الأغانى ٥ : ٨٦

ما هاج من منزل بذى علم بين لوى المنجنون فالثلم

والأخرى همزية ، ومطلعها :

أنت ابن معتَلِج البطا ح كُدَيها فكَدائها (١)

وما كان الخليفة ليكرر الإذن له فى الدخول عليه ومدحه إلا وهو راض عنه ، ومنبسط له .

ومن قوله فى القصيدة الميمية ، يذكر أياديه عنده ، ويصف تعلقه به وإخلاصه له :

منهم إمام الهدى له نعم عندى وأيد تَصُوب بالديم

خليفة يقتــدى بسنته فى إرث مجد الثراء والكرم

ثم قال :

يَرُبُّ معروفه الجزيل فلا ينقصه بعد قوة الوَذم (٢)

نفسى فداء له وما عظمت من فاجعات الحتوف والسَّقم

أما القصيدة الهمزية فيذكر الديوان أن الشاعر قالها فى عبدالله ابن الزبير حين خرج إليه وافدا . ولا ندرى كيف يكون ذلك مع أن الشاعر يقول فيها بعد أبيات من المطلع :

ولدتك عائشــة التى فضلــت أروم نسائها

متعطف الأعياص حو ل سريرها وفنائها

والذى ولدته عائشة من الرجلين هو عبد الملك ؛ فأمه عائشة

(١) معتلج البطاح : البطاح الطويلة النبات

(٢) يرب : يزيد . الوذم : الزيادة .

بنت معاوية بن الوليد بن المغيرة بن أبي العاص بن أمية [١] . أما ابن الزبير فأمه أسماء بنت أبي بكر رضى الله عنهما . والأعياص المتعطفون حول سريرها كما يقول الشاعر فى البيت الثانى أربعة من أبناء أمية بن عبد شمس الأحد عشر ، وهم : العاص ، وأبو العاص والعيص ، وأبو العيص [٢] .

ويشير المرزبانى أيضا إلى أن القصيدة إنما قيلت فى عبد الملك[٣] ومنها فى المدح :

أوفى قريش بالعـــلا ... فى حـــكمها وقضائهـا
وأشـــدهـا آخيّة ... فى عزها وثرائهـــا [٤]
وأمدها عنـــد العلا ... كفا بحبـــل رشائهـا
ولأنت أعلمهـا بهـا ... وأصحها من دائهـا
وأتمهـــا نسبـا إذا ... نسبت إلى آبائهـا

وإذا نحن قرنا هذه الهمزية إلى أختها البائية السالفة الذكر بدت الأولى أشبه بأن تكون أولى مدائح الشاعر فى الخليفة .

فالبائية كما سلف — لا تبدأ بدءا يليق بالمقام ، ولا تقول شيئا مما اعتاد الناس أن يقولوا فيه ، ولا ترتفع بالمدح مع هذا وذاك فى رأى الخليفة على الأقل — إلى مرتبة مدائحه فى الأعداء .

---

(١) محاضرات تاريخ الأمم الاسلامية : ٢ : ١٤٧
(٢) الأغانى : ١ : ١٤ (٣) الموشح للمرزبانى : ١٨٦
(٤) آخية : رابطة .

أما الهمزية فتعزف عن التشبيب جملة ، وتقصد إلى المدح منذ البيت الأول ؛ فيتمثل الشاعر فيها جادا مشغولا بشأنه الحاضر ومستقبله المخوف عن ماضيه المنصرم وما فيه من ذكريات الفتوة والغرام . وهذا بلا ريب أليق بالمقام ، وأدخل فى بابه . ثم هو بعـــد يقر بالهزيمة ، ويستسلم للأمر الواقع ؛ فيذكر أن الآفاق أخذت عليه ، والبلاد ضاقت به ؛ فلم يبق له مهرب إلا إلى الخليفة ولا مقام إلا فى ظلاله . ثم يعرض نفسه وأولاده عليه ، ويجعل مواهبه ومواهبهم رهن مشيئته ، ويسأله أن يضمهم إليه ، ويوكلهم بما يهمه من الأمر ؛ فيرى فيهم غناء وحسن بلاء فى الحروب :

إن البـــلاد سوى بلا ... دك ضاق عرض فضائها
فاجمـــع بَنِى إلى بنيـ ... ـك فأنت خير رِعائها (١)
نُشهدك منـا مشهــــدا ... ضنكا على أعــــدائها
نحن الفوارس من قريـ ... ـش يوم جـــدّ لقائها

وإذا صح أن تـكون هذه هى أولى قصائد ابن قيس فى عبد الملك فماذا أغضب عبد الملك منها ، وحمله على أن يمنع الشاعر من أخذ عطائه مع النـاس ؟ لا يبعد أن يكون مرجع ذلك إلى فخر الشاعر بنفسه وقومه فى القصيدة ؛ فطالما أنـكر الممدوح الفخر على مادحه ، وغضب عليه ، وحرمه بسببه ؛ لأنه يرى فيه منافسة

(١) رعائها : رعاتها

له ، وتطاولا إلى مقامه من غير ذى حق ولا كفاية . فكيف به مع الإعتاب والاعتذار ، وخاصة إلى القادر المتمكن حين يهب الحياة ، ويغفر الذنب العظيم ؟ إنه ليبدو حينئذ على أخف صوره، وفى أيسر حالاته عملا لا كياسة فيه ولا سداد . وما الظن بمن غلب على أمره ، حتى لم يبق له سوى أن يموت على رأيه ، أو يرتد عنه ، ويلتمس الحياة من عدوه منة موهوبة ، فإذا ظفر بها بعد لأى وإعمال حيلة نسى محنته ، وانقلب بطرا فخورا ؟

واتصل ابن قيس بعبد العزيز ، وبشر ابنى مروان أيضا : يمدحهما ، ويغشى مجالسهما ، كما كان يمدح عبد الملك ، ويغشى مجلسه . والكتب التى رجعنا إليها فى ابن قيس لا تذكر صراحة أين اتصل بعبد العزيز بن مروان ، ونعتقد أنه اتصل به فى مصر أيام كان واليا عليها . وآية ذلك قوله من إحدى مدائحه فيه :

لم يصحُ هذا الفؤاد من طربه ومَيْله فى الهوى وفى لعبه
أهلا وسهلا بمن أتاك من الرّ (م) قة يسرى إليك فى سُخُبِه (١)
باتت بحلوان تبتغيك كما أرسل أهل الوليد فى طلبه
فدَلّها الحب فاشتفيت كما تشفى دماء الملوك من كلبه (٢)

وإذا يكون ابن قيس قد زار مصر فيما زار من البلاد .

---

(١) الرقة : مدينة على الجانب الأيسر للفرات. السخب : القلائد من قرنفل ونحوه ، ليس فيها لؤلؤ ولا جوهر

(٢) كلبه : الهاء هنا عائدة على الكلب المفهوم من الكلام وإن لم يذكر فيه .

والظاهر أنها أعجبته ، وأثارت شاعريته ؛ فقد وصف بعض مشاهدها ، وأشار إلى بعض آخر ، وقال فيها على كل حال ما لم يقل مثله ولا قريبا منه فى أى قطر من الأقطار التى زارها .

ففى القصيدة التى روينا بعض أبياتها آنفا يمتدح حلوان مقر الأمير ، ويذكر أشجار الفاكهة التى كانت تحفل بها يومئذ : من كروم ، وتين ، ونخيل . وفى قصيدة أخرى يصف السفن وهى تمخر فى النيل مصعدة إلى حلوان ، تحمل طرائف البلاد التى فتح الله على موسى ابن نصير . وسنروى شعره فى هذا وذاك حين الحديث عن الوصف فى شعره إن شاء الله .

وجملة ما قال ابن قيس فى عبد العزيز بن مروان ثلاث قصائد : إحداها هذه البائية ، والأخرى ميمية ، والثالثة قافية :

ومن قوله يمدحه فى الميمية :

جُمعت بالغر من أميــة حا	شى واحــدا نجتلى به الظلما
أعنى ابن ليلى عبد العزيز بيا	بليون تغدو جفانه رُذُما [1]
يلتفت الناس حول منــبره	إذا عمود البرية انهــدما
مجرّب الحزم فى الأمور وإن	خفّت حلوم بأهلها حلُما

(١) بابليون : حصن بناه الفرس أيام ملكوا مصر ، وكان العرب يسمونه قصر الشمع ، وكان على الضفة الشرقية من النيل قرب الكنيسة المعلقة فى مصر القديمة . الرُذم : القصاع الممتلئة تصب جوانبها . ويقال : ان عبد العزيز بن مروان كان له ألف جفنة تنصب كل يوم حول داره ، وكانت له مائة جفنة يطاف بها على القبائل ، تحمل على العجل إلى قبائل مصر

يتهب الحمد باليـــدين كما ... ناهب فرسـان غارة نعما (١)
أغر أشياخه العصاة بنـــو ... أمية المرغمون من رغما (٢)
أشياخ صدق نموا بمعتلج الـ ... ـبطحاء كانوا لقومهم عِصَما
نالوا مواريث من جدودهمُ ... فورثوها مروان والحكما
أهل الحمالات والدسيعة والـ ... ـمفنون عند الشدائد البَهَما (٣)
اخترت عبد العزيز مرتغبا ... والله للمرء خـير من قسما
من البهاليل من أميـة يز ... داد إذا ما مدحتـه كرما

أما بشر فليس له من شعره سوى قصيدة واحدة ، مطلعها :

قد أتانا من آل سعدى رسول ... حبذا ما يقول لى وأقول

ويلوح أنه ارتحل إليه لينشده إياها ، فقد قال فيها يخاطب مطيته :

ألحقيني بلاد بشر خلاك الذ (م) م إذ خُليت إليـه السبيل
ملك وجهه طليق إلينا ... حين نأتيـه والعطاء جزيل
كلما جاوزَت من الأرض ميلا ... عنّ ميل لنا وأعرض ميل

ولكن لا ندرى إلى أين كانت هذه الرحلة ؟ والمفهوم أنها كانت إما إلى الكوفة ، وإما إلى البصرة ؛ فهما المصران اللذان وليهما بشر لأخيه .

---

(١) ناهب الغنيمة : أخذها

(٢) رغم الشيء كعلم ومنع : كرهه ، وكمنع لم يقدر على الانتصاف

(٣) الحمالات : الديات ، الغرامات . الدسيعة : تطلق على العطية الجزيلة ، والمائدة الكريمة .

وكان لبعض القدماء وقفة بمطلع هذه القصيدة ، ولهم حوله تحاور وأحاديث ، وأظن أن لامانع من رواية أقوالهم فيه ثم التعليق عليه فى هذا المقام .

روى صاحب الأغانى أن عبد الرحمن بن عُزير الزُّهرى قال: أنشدت أبا السائب المخزومى قول ابن قيس الرقيات :

قد أتانا من آل سعدى رسول   حبذا ما يقول لى وأقول
من فتاة كأنها قرن شمس   ضاق عنها دمالج وحجول

فقال لى : يابن الأمير ، ماتراه كان يقول وتقول ؟ فقلت :

حديثا كما يسرى الندى لو سمعته   شفاك من ادواء كثير وأسقما

فطرب ، وقال : بأبى أنت وأمى . مازلت أحبك ، ولقد أضعف حبى إياك حين تفهم عنى هذا الفهم .

وروى أيضا عن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان ابن عفان أنه قال : أنشد أشعب بن جبير أبى أبيات عبيد الله بن قيس الرقيات التى يقول فيها :

قد أتانا من آل سعدى رسول   حبذا مايقول لى وأقول

فقال أبى : ويحك يأشعب . ما تراه قال وقالت له ؟ فقال :

حديثا لو ان اللحم يصلى بحره   غريضا أتى أصحابه وهو منضج

ذكر شوقا ، ووصف توقا ، ووعد ووفى ، والتقيا بمزة كلب ، فشفى ، واشتفى ، فذلك قوله :

حبـــذا ليلتى بمـزة كلب   غال عنى بها السكوانين غول [1]

فقال له : إنك لعلامة بهذه الأحوال . قال أجل : بأبى أنت، فاسأل عالما عن علمه [2]

والواقع أن الشاعر فى هذا المطلع استطاع أن يثير كثيرا من الاهتمام بالحديث الذى جرى بينه وبين رسول الحبيب إليه ؛ لأنه يشبه مطالع القصة ، أو مطلع الحديث المفصل المبسوط : « قد أتانا من آل سعدى رسول »

فلما أقبل الناس عليه ، وأنصتوا له ، وهم يحسبون أنه سيفضى إليهم بسره ، ويرضى رغبتهم فى الاطلاع لاذ بالإبهام ، وغنى عن التصريح بامتداح الحديث : « حبذا ما يقول لى وأقول » . فزادهم رغبة وتشوقا ، ولم يستطيعوا أن يدفعوا عن أنفسهم الحيرة ، ولا أن يردوها عن المحاورة والتعليق .

ويظهر أن صلة الشاعر بآل الزبير لم تنقطع بعد زوال دولتهم وانقطاعه للأمويين ، فقد روى الأغانى أنه استأذن على حمزة بن عبد الله بن الزبير ، فقالت له الجارية : ليس عليه إذن الآن ، فقال : أما إنه لو علم بمكانى ما احتجب عنى . فدخلت الجارية على حمزة ، فأخبرته ، فقال : ينبغى أن يكون هذا ابن قيس الرقيات . ائذنى له ،

---

(١) المزة : قرية كبيرة غناء فى وسط بساتين دمشق . بينها وبين دمشق نصف فرسخ . السكوانين : الثقلاء من الناس .

(٢) الأغانى : ٥ : ٩٩

فأذنت له ، فرحب به ، وسأله عن حاجته ، وقضاها له ، وأمر بما يصلحه لسفره حتى رقاع أخفاف الإبل (١) .

على أننا لا نجد فى الديوان مدحا لأحد من آل الزبير ، سوى عبد الله ومصعب أخيه.

٦ ـ ابن قيس وعبد الله بن جعفر : (٢)

أسلفنا أن ابن قيس استجار عبد الله بن جعفر ، وسأله أن يشفع فيه لدى عبد الملك ؛ ففعل ، ونجحت مسعاته ، وظفر الشاعر بالأمان المنشود . ونزيد هنا أن عبدالله كان من آثر الممدوحين عنده وأحبهم إلى قلبه ؛ لكثرة ما أسدى إليه من صنيع ، وغمره به من معروف . وقد مدحه بمقطعة وثلاث قصائد ، وهو مقدار من المدح لم يقله فى أحد سواه ، ومدحه فيه مع ذلك رائق جميل ، يدل على عاطفة متأثرة وعرفان عميق .

والظاهر أن صلته به كانت قديمة ، تسبق التجاءه إليه ، وتوسله به إلى الخليفة ، كما يفهم من حديث صاحب الأغانى عن هـــذه الصلة . قال :

« كان ابن قيس الرقيات منقطعا إلى ابن جعفر ، وكان يصله ، ويقضى عنه دينه ، ثم استأمن له عبد الملك فأمنه ، وحرمه عطاءه ،

---

(١) المصدر نفسه : ٩٢ بتصرف

(٢) ولد بالحبشة ، وهو أول مولود بها فى الاسلام ، وتوفى سنة ٨٠ للهجرة .

فأمره عبد الله أن يقدر لنفسه ما يكفيه أيام حياته ؛ ففعل ذلك ؛ فأعطاه عبد الله ما سأل ، وعوضه من عطائه أكثر منه ، ثم جاءت عبد الله صلة من عبد الملك وابن قيس غائب ؛ فأمر عبد الله خازنه فخبأ له صلته ، فلما قدم دفعها إليه ، وأعطاه جارية حسناء ، فقال ابن قيس :

إذا زرت عبد الله نفسى فداؤه
رجعت بفضل من نداه ونائل
وإن غبت عنه كان للود حافظا
ولم يك عنى فى المغيب بغافل
تداركنى عبد الإله وقد بدت
لذى الحقد والشنآن منى مقاتلى
فأنقذنى من غمرة الموت بعدما
رأيت حياض الموت جم المناهل
حبانى لما جئته بعطية
وجارية حسناء ذات خلاخل »[1]

٧ — صفاته :

ونريد بها الخصائص الذاتية والنفسية التى ترسم صورته ، وتميز شخصيته بين الشخصيات . وليس لدينا من ذلك إلا قليل ، نعثر

(١) الأغانى : ٥ : ٨٢

عليه هنا وهناك فى أشعاره ، وبين ثنايا أخباره . ومن الخير أن نعرضه على كل حال ؛ فهو يشير إلى جوانب مهمة فى الرجل ، وليس يخلو مع ذلك من لذة ومتاع .

والمفهوم أن ابن قيس كان فى شخصه معتدل التكوين،سوى الخلق، لاحظ لهمن ضخامة ولا بَطَن،لأنه كان يؤثر الاضطراب والحركة على الدعة والاستقرار ، ولم يكن يصيب من الطعام والشراب إلا بحساب :

إنى لأخلى لها الفراش إذا قصّع فى حضن عرسه الفَرِق[1]
من غير بغض لها لدىّ ولـ ـكنْ ذاك منى سجية خلق
لست بجَشَّامة له كرش يأكل ما اسطاع ثم يغتبق
قد بَرِمت عرسه بمضجعه ودتلوَانالعجّول ينطلق[2]
يظل ينفى الوليدعن عُقَب الـ ـقدر قليل الحياء منسحق[3]
ليس عسى أن يقال مر به أفراس صدق وأينق عُتُق

وكان فى دينه غير مفرط ولامستهين ، ولسنا نعول فى قول ذلك فقط على حديثه عن نفسه حين استخفى فى الكوفة ، إذ يقول : « فأمرت لى المرأة بما أحتاج إليه من الطعام والشراب والفراش

(١) قصع فى ثوبه : تلفف ، والمنزل : لزمه . الفرق : الشديد الفزع .

(٢) العجول : العجل

(٣) العقب : جمع عقبة ، وهى شىء من المرق يرده مستعير القدر حين يردها . منسحق : منكسر متذلل .

والماء للوضوء [١] ، نعم لا نعول على ذلك وحده ؛ فمن شأن المحن أن تقوم العوج ، وترد عن الزيغ ، وتحمل على الإيمان والالتجاء والتماس العون . ولكننا نعول كذلك على قوله وهو فى أمن وعافية لا يشكو محنة ، ولا يخاف سوءا حين الأيام تسير سيرها المألوف ، وأمره إليه يصرفه على ما يريد :

أتقعد فى تكريت لا فى عشيرة
شهود ولا السلطان منك قريب
وقد جعلت أبناؤنا ترتمى بها
بقتل نزار والحروب حروب
وأنت امرؤ للحزم عندك منزل
وللدين والإسلام منك نصيب

فهو يعزم الخروج ، ولكن لا يأنس من نفسه نشاطا له ، ولا رغبة فيه ؛ لأنه ألف تكريت ، واطمأن إلى المقام فيها ؛ فراح يقنعها بصواب عزمه ، ويثير حماستها له ؛ فذكر فيما ذكر لها من أسبابه أنه متدين مسلم ، للدين والإسلام منه نصيب .

بل نعتمد أيضاً على قوله حين المتعة والقصف :

وسلاف مما يعتق حل زاد فى طيبها ابن عبد كلال

---

(١) الأغانى : ٥ : ٧٧

وقال :

حبـــذا ليلتى بمزة كلب غال عنى فيها الـكوانين غول

بت أُسقى بها وعندى مَصاد إنه لى وللـكرام خليل [١]

مَقـَدِ يا أحله الله للنـا س شرابا وما تحل الشَّمول [٢]

فهو حتى فى هـــذه الحال التى يقل فيها التحرج والتماسك ، ولا تلتزم القيود والحدود — يتحرى الحلال ، ولا ينسى أن يسمى لنـا الشراب الذى شربه ، وأن يفرق بينه وبين الأشربة التى حرمها الدين .

وهناك بيت يدل فى ظاهره على رقة الدين والاستخفاف به ، وذلك قوله لأم البنين :

إن تُسلمى نُسلم وإن تدعى الـ إسلام لا نخذلك فى الشرك

لـكنه فى الواقع ليس من هذا فى شىء ؛ لأن الأمر بينه وبينها معلق على ما يشبه المستحيل ؛ فأم البنين كما هو معلوم — بنت أخى الخليفة ، وزوج ابنه وولى عهده . ومثلها لايظن به أن يغير دينه ، ويتبدل الشرك به ، فإلا يكن الدين والغيرة عليه والذياد عنه فى بيت الخلافة عن رسول الله ، وصاحب دعوته فأين يكون ؟

والشاعر نفسه يصف أم البنين قبل هذا البيت بالحلم والنسك إذ يقول :

---

(١) مصاد : رجل من بنى عامر

(٢) مقديا : منسوبا الى مقد . وهى قرية بحمص تنسب إليها الخمر :

ترمى لتقتلنا بأسهمها ونزُنها بالحلم والنسك [1]

على أنه فى البيت لا يعدها إن تركت الإسلام — بالاحتذاء والمتابعة ، ولـكن بالوفاء وترك الخذلان . والفرق بين الوعدين غير هين ولا قليل . فالأمر إذا لا يعدو أن يكون عبث مغازل ، أو تهالك عاشق متظرف ، يحاول أن يتصبى محبوبه، ويقع من قلبه بما يصطنع له من أساليب الخضوع والاستسلام .

ومن قبل فى هذه القصيدة نفسها يعجب الشاعر كيف لا تكون الخلافة لأم البنين ، فيدين لها الناس بالولاء والطاعة ، ويحملون إليها هى الغنائم والخراج :

قامت تحيينى فقلت لهـــا : ويلى عليك وويلتى منك

ولِمَ ادر مثلك لا يكون له خرج العراق ومنبر الملك

أفتراه فى هذا يريد أن يعالن برأيه الحق فى خلافة المسلمين لمن تكون ، وهى هى الخلافة نفسها التى نصر الزبيريين فى طلبهـا ، ولقى فى سبيل نصرهم ما لقى من عنت ، وتعرض لـكل ما تعرض له من خطر ؟ أم تراه إنما يريد الاستمالة والخداع ليس غير ؟

ويصمه بعضهم بالجبن ، ويعتدون من جبنه أنه اقـترح على عبد الواحد بن أبى سعد حين كان معه فى الجزيرة أن يرحلوا إلى

---

(١) نزنها بالحلم . نظنه فيها .

الشام ؛ نجاء من عمير بن الحباب أن يسطو بهم ؛ انتقاما لقتيل بنى ذكوان الذى قتله حرب بن عبد الواحد .

وهذا مقالهم فى ذلك : « . . . فآلى عمير بن الحباب ألا يدع بوادى الأحرار أعظم من رجل يقتله به [١] ، فلما بلغ ذلك عبيد الله بن قيس وكان جبانا — قال لعبد الواحد : ارحل بنا إلى الشام ؛ فإنا مأكولون هاهنا [٢] » .

فإن تكن هذه هى وحدها ظاهرة الجبن الذى ينسبون إليه ، أو تكن ثمة ظواهر أخرى له ، لكن من طرازها — فإن الخلاف بينهم و بينه حينئذ لا يكون فى الواقع على تفسير الشجاعة والجبن، بل على تفسير التقحم والاتقاء هم يدخلون الأول فى باب الشجاعة والآخر فى باب الجبن ، وهو يذر كلا منهما بموضعه الذى وضعه الناس فيه .

فالمعروف أنه لم يكن له ولقومه طاقة بعمير بن الحباب وقومه وقد كانت منهم لا من عمير وقومه المباداة بالعدوان . فرأى لهم الرحلة ، وأشار بها عليهم ؛ لئلا يصيبهم فى غير حمد ولا نفع مايصيب الباغى الضعيف القليل العدد ، من عدوه الشديد البأس الموفور الجمع .

---

(١) هكذا فى الأصل . والمراد مفهوم على كل حال .

(٢) الديوان : ١٩٢

فلما أن عصوه ، وأغار عليهم عمير فى قومه لم يثبتوا له ، ولم يدفعوا عن أنفسهم ؛ فوقع ابن قيس أسيرا ، وسيق إلى منازل أعدائه مجنوبا .

والشاعر بعد هذا يجهر بأنه لا يحب الشر ، ولا يرى التصدى له ، لكن إذا طلبه الشر ، وسعى إليه حتى ينزل بساحته — رحب به ، واضطر إلى منازلته :

بغيض إلى الشر حتى إذا أتى
نَحلَّ بدارى قلت للشر : مرحبا
لكى يعلم الأقوام شرى ومَأْقِطى
إذا لم أجد إلا على الشر مركبا [1]
ومثلك لا ذمت السِّفار بأنفه
وأحذَيتُه غما إذا ما تغضبا [2]

فليست معاطاة الشر فى رأيه حرفة محترف أو فخر مفتخر ، ولكنها سلاح الضرورة الأخير ؛ فلا ينبغى الالتجاء إليه إلا حيث لا يكون عنه معدى ولا محيص .

على أنه يذكر فى غير موطن من الديوان أنه شهد الحروب ،

---

(١) المأقط : المضيق فى الحرب ، وموضع القتال .

(٢) لاذم : لازم . السفار حديدة أو جلدة توضع على أنف البعير .

وكان له فيها مشاركة وبلاء . ومن ذلك قوله :

إن تَرَيْنى تغـــير اللون منى

وعلا الشيب مَفرقى وقَـذالى (١)

فظلال السيوف شيّبن رأسى

وطعانى فى الحرب صُهب السِّبال (٢)

ثم هو قد خرج مع مصعب للقاء عبد الملك ، وأبى إلا أن يثبت معه حتى يعرف مصيره ، مع أن الأمير قد أعفاه من صحبته وجهزه لمفارقته، وأن مصيره كان معروفا لاشك فيه ولا خلاف ؛ فإنما هو مصير القـائد يخذله جنده ، ويتخلى عنه أعوانه ، وهو يتأهب للزحف والنزال .

ولا ندرى كيف يقال بعد كل ذلك عن ابن قيس : إنه كان جبانا ، فما كان للجبن أن يطوع لصاحبه موقفا كموقفه من مصعب ابن الزبير ، ولا موقفا من مواقف الحرب ؛ فهذا وذاك مما لا يقدم عليه إلا ذو حظ من رباطة الجأش ، والقدرة على امتلاك النفس .

وغاية مايمكن أن يقال فيه من هذه الناحية أنه كان امرأ هادئا حذرا معتدلا ، يؤثر فى علاج الأمور الرفق والأناة ومجانبة الشر ، على العنف والاندفاع والمبـاداة بالعدوان ، لـكن أسىء فهمه ، وخفى وجه الحق من أمره ؛ فظن جبانا ، وما هو به فى قليل ولا

---

(١) القذال : مابين الأذنين من مؤخر الرأس (٢) صهب السبال : الأعداء .

كثير ؛ فليس بين الشجاعة وصفة من الصفات التى أسلفنا مجانبة ولا منافاة .

وكان خيرا ألوفا عطوفا ، يحب عشيرته ، ويعتز بها ، ويحن إذا فارقها إلى المقام فى جوارها ، ويوصى بحفظ مغيب الأهل والبر بهم ورعاية حقوقهم ؛ فهم القوة والسند، وهم الحماية والعصمة . وقال :

إن قوم الفتى هم الكنز فى دنـ
ـياه ، والحال تسرع بالتقليبا .

وقال :

تقول سلمى : ألا تنام إذا
نمنا ؟ فقلت : الهموم والأرقُ .
تمنعنى ، وادّكار نصر بنى
عمِّى إذا حل جارى الرَّهَق (١)
ياسلم نأى الديار عن بلد الـ
ـوالد ذل ورحبها ضَيِّق (٢)

وقال :

وقومك لاتجهل عليهم ولا تكن
بهم هَرِشا تغتابهم وتقاتل (٣)

---

(١) الرهق : الظلم (٢) الضيق : مايضيق الصدر به (٣) الهرش : الجافى .

فإن امرأ فى معشر غير قومه
ضعيف الكلام شخصه متضائل
إذا شاء لم يبسط لسانا ولا يدا
ولم تنشبُ عن ذى صفحتيك المعابل [١]

ولقد آلمته موقعة الحرة، ونال منه الحزن على قتلاها من قومه نيلا شديدا، وطالما بكاهم وتفجع عليهم. ومما قال فيهم مرثية يدل مطلعها على أنها قيلت بعد مقتل مصعب. أى بعد تسع سنين على الأقل من يوم الحرة. وفيها مع ذلك من حرقة اللوعة والجزع المتجدد ما يبكى العيون، ويهيج الأشجان. وهذا مطلعها:

قالت كثيرة لى: قد كبرتَ
ومابك أُليوم من داهمه

ومنها:

يتامى يبكّون آباءهم
ولم يُبق دهر لهم سائمة
وأرملة يعتريها النحيب
إذا نامت الأعين النائمة
تبكّى رجال بنى عمها
وإخوتها وحدها قائمة

(١) المعابل: النصال الطوال العراض.

والظاهر أنه كان محبا للمال ، أو أن مطالبه لديه كانت كثيرة فقد رأينا مصعبا يعطيه مالا حين كان معه فى قتال عبدالملك ، ومع ذلك لما مل المقام فى الكوفة ، وأعلم كثيرة أنه يريد الخروج إلى أهله — جهزته بجهاز السفر ، وملكته عبدا وراحلتين ، وأعطت العبد نفقة الطريق ؛ فتقبل كل ذلك ، وسكت عليه .

ولما أمنه عبد الملك ، وأبى أن يعطيه مع أصحاب الأعطيات لم يلهه الظفر بالحياة عن المال ولو إلى حين ؛ ففزع إلى عبد الله ابن جعفر يشكو إليه فى هلع ويأس ؛ فيقول : « ما نفعنى أمانى ، تركت حيا كميت لا آخذ مع الناس عطاء أبداً » .

وسيأتى أنه كان فى غزله محبا واجدا ، يهيم بالمرأة ، وقد يعامر فى طلبها ، ولكنه على ذلك لا يبدو ماجنا متفحشا ، ولا خليعا مستهترا ، كبعض الغزلين من شعراء الحاضرة على الخصوص .

ومن جملة الأوصاف التى أسلفنا يمكن أن نتخيل ابن قيس رجلا معتدلا متسمحا . لا هو بالجاد المتشدد ، ولا العابث المستهتر ولكنه العدل بين هذين ، له من كليهما نصيب ، وفى قلبه لكليهما متسع . وليس يضيق بالجمع بينهما ، ولا بمحاولة التوفيق بين هوى النفس وحق الله والناس ، كما يقتضيه العرف ويوصى به الدين .

٨ـ أسرته :

ليس فى شعر ابن قيس ولا فى المعروف من أخباره أحاديث خاصة عن أسرته ، وكل ماهنالك عنها إلمامات عارضة، وإشارات مبهمة : لا تغنى فى الدراسة والبحث ، ولكنها مع ذلك لا تخلو من فائدة .

لقد ذكر أبويه فى معرض الفخر ؛ فنمى كليهما إلى أصله ، وأشاد بحظه من وفرة العدد ، وزكاء الأرومة :

أمّى لقيس فى الذرا ... وأبى لعاتكة المَهيره [١]
بنت العواتك من بنى ... ذكوان لا عَدْمى قفيره [٢]
فى بيتها عدد الرجا ... ل وحولها مضر الكبيره

وذكر زوجه فى قصيدة أنشأها بعد أن أطلق من الأسر ، فقال يتحدث عن عبثها به ، حين رأت الشيب يسبق إلى رأسه ؛ فيبدو الفرق بين شبابها وشيخوخته على أشده من القوة والوضوح ، كأن لم يكن بينهما مناسبة قريبة فى السن :

هزئت أن رأت بِىَ الشيب عرسى
لا تلومى ذؤابتى أن تشيبا

(١) المهيرة : الحرة الغالية المهر .

(٢) لاعدمى : لا فى عدم . والضبط والتفسير عن مخطوطة الشنقيطى بدار الكتب . قفيرة: قليلة اللحم , وفى اللسان عن ابن سيدة . « والأنثى قفرة ، وقفرة » (بكسر الفاء وسكونها) فالبيت شاهد لقفيرة أيضا .

ويظهر أنها كانت من قومه، وأن نسبها منه كان غير بعيد ؛ فقد قال فى هذه القصيدة أيضا يوجه إليها الخطاب :

فاظعنى فالحق بقومك إنى لا أرى أن أقيم فيكم غريبا
فانزلى فى بنى كنانة تلقَى فيهم العز إن دعوتِ قريبا

وذكر أخاه عبد الله على ما أسلفنا فى قوله :

يَنعىُ بنى عبد وإخـوتهم حل الهلاك على أقاربيه

وذكر فى إحدى قصائده أن له أولاداً ، وأنهم كبروا حتى علاهم الشيب، فهو لذلك يستحي منهم أن يمضى على سنته من المغازلة واللهو :

كـبِرت فلست من شرط الغوانى
وفارقت الصـبا غيرَ الخفـاء
وشاب بنوك فاستحييت منهم
وأبت إلى العـَفافة والحيـاء

وسمى اثنين منهم فى قصيدة أخرى ، ثم توجه إليهم بالوصـية وإسداء النصيحة ، كأنهما أكبر أولاده ، والقائمان على الأمر بعده :

أوصِّى شُـريحا إن هلـكت ومحصنا
بِعَون على الجُلَّى وترك المحارم

وكَذبٌ عن الجار الملبّس حبله
بحبليهما وبالحليف المقاسم
وإن حارب المولى فحارب بحربه
وإن سالم المولى عليك فسالم
فإنك بين البِيض من آل جابر
وبين بنى شبل وبين العلاقم
وقد نلت فرعاً من لؤى بن غالب
دعائم كانت من خيار الدعائم

ويروى صاحب الأغانى أنه زوج ثلاثة بنين له بثلاث بنات لأخ له، وزوج ثلاثة من بنى أخ له بثلاث بنات له[1]

ولسنا نجد فى شعره رثاء لزوجه ولا أخيه، ولا لأحد من أولاده وأبويه، كأنه مات قبل زوجه وأولاده، وكأنه لم يشهد موت أخيه وأبويه، أو كأنه شهده وهو صغير.

٩ — وفاته:

ذكر الأستاذ جرجى زيدان فى كتابه تاريخ آداب اللغة العربية[2] أن وفاة ابن قيس الرقيات كانت سنة خمس وسبعين، ولكنه لم يذكر علام عول فى تعيين هذا التاريخ، ولا من أين أتى به؟

---

(١) الأغانى: ٥: ٧٣ (٢) تاريخ آداب اللغة العربية: ١: ٢٩٢

وهو على كل حال تاريخ نراه بعيد الاحتمال ، فابن قيس دخل مصر كما سبق أيام ولاية عبد العزيز بن مروان عليها ، ووصف فيما وصف من مشاهدها سفن النيل وهى ذاهبة إلى حلوان بنفائس بلاد المغرب ، بعد أن فتح الله بها الفتوح على موسى بن نصير . وإنما كان ذلك على ما يقول الكندى سنة إحدى وثمانين .

وهذا نص عبارته : وولى « عبد العزيز بن مروان » موسى بن نصير مولى لخم أمر المغرب كله ، فسار موسى ، ففتح الله عليه الفتوح بها ، وخرج عبد العزيز إلى الاسكندرية خرجته الثالثة سنة إحدى وثمانين ، وخرج معه إليها وجوه الناس من الأشراف والشعراء ، فقال بن قيس الرقيات:

غَدَوا من مَدرج الكِريَو ن حيث سفينهم حُزُقُ [1]

الأبيات .

فابن قيس على هذا أدرك السنة الحادية والثمانين ولم تكن وفاته كما يقول الأستاذ جرجى زيدان فى السنة الخامسة والسبعين

ونضيف إلى ذلك أن عبد الله بن جعفر توفى كما جاء فى كتاب النجوم الزاهرة [2] فى السنة الخامسة عشرة من ولاية عبد العزيز ابن مروان على مصر ، أى سنة ثمانين من الهجرة ، ونضيف أيضاً

---

(١) الولاة وكتاب القضاة : ٥٣ . المدرج : المسلك ، وفى رواية الكندى دورج بدل مدرج ، ولم أعثر لها على معنى ملائم . حزق : جماعات

(٢) النجوم الزاهرة : ١ : ١٧١ ، ١٧٤

أننا لا نجد فى ديوان الشاعر رثاء لعبد الله بن جعفر ، ولم يكن عبد الله بالذى يهون موته على ابن قيس ، ولا بالذى يسوغ أن ينسى أياديه عنده ، فيسكت عن رثائه وهو قادر عليه .

فيلوح أن مانعا لاقبل له به ، ولا حيلة له فى دفعه — هو الذى منعه من أداء هـذا الواجب الذى لا محيص له عن أدائه ، ولا عذر له فى تركه .

وقد يكون هذا المانع بعد ما بين الدارين وطول ما يستغرقه التواصل بينهما من وقت ، وقد يكون شيئا آخر من عقابيل الحياة وعلى كل حال ليس يعنينا أمره كثيرا ، فليكن مايكون ،ولكن الذى يعنينا أنه على ما يظهر لم يزل قائما ملازماً حتى قضى الشاعر نحبه ، فلا يبعد أنه وصاحبه قد قضيا فى وقتين غير متباعدين من أوائل سنة إحدى وثمانين.

شعره

لم يكن ابن قيس من معترك الحياة العامة واضطراب الأحداث فيها ، كما يكون المتفرج من ملعب التمثيل : يرى ، ويوازن ، ويحكم من مكان بعيد ، ولا كما تكون المصورة من المناظر التى يراد تصويرها : تنقل الهيئات والأشباح حكاية على الورق ، دون وعى ، ولا تأثر ، ولا تصنيع ، ولكنه على ما أسلفنا كان يلابس تلك الحياة ، ويتمرس بأساليبها ، ويخالط السلطان ، ويشارك فى التمكين له والقضاء على مناوئيه بنصيب السياسى الداعية ، يخطب وده ، ويرجى نفعه ، ويتقى سخطه ، ويحسب له حساب بين أصحاب المواهب والكفايات . فأتيح له من اطلاع الأسرار والدخائل ومعرفة المصادر والموارد مالا يتاح مثله لكثير .

ولم يكن بمعزل عن حياة اللعب واللهو ، بل لقد أخذ منها هى أيضاً بنصيب .

فقد واقع الحياة من كلا جانبيها ، ولم يغب عنه ما تنطوى عليه هنا وهناك . فهو إذ يحدثنا عن شيء منها ، أو يصور لنا مشهداً من مشاهدها — إنما يصدر فى هذا وذاك عن مشاركة وإحساس وتأثر .

وعسى أن يكون هذا أهم أسباب التجانس ، وقوة المشابهة التى تشيع فى شعره ، وتغلب عليه . فهو من حيث تتناوله لا نراه يختلف فى الروح والسمت ، وإن اختلف بعض الأحيان فى الصبغة والزى . وإنما تتخالف الآثار الأدبية فى القيمة والجوهر بتخالف الأحاسيس التى تغرى بها ، وتلازم الأديب وهو يعالج إنتاجها ومثل هذه الأحاسيس بالإضافة إليها كمثل الجو الذى ينشأ النبات وينجم فيه ، فعلى قدر حظه من الصحة وحسن الملاءمة يكون حظ النبات من القوة والسلامة من العيوب والآفات .

وقد وهب صاحبنا نفسه وشعره للمرأة والسياسة ، هما همه ومتنزل وحيه ، لا يكاد يعمل إلا لها ، أو يقول إلا فيهما . ويوشك أن تكون جمهرة شعره إما غزلا وإما سياسة من قريب أو من بعيد . وليس فى هذين مآزق تكلف واستكراه ، كتلك التى يكثر أن يدفع إليها الآخرون من المتكلفين .

فحقيق إذا بمن عرف ابن قيس فى بعض شعره ألا يلتبس عليه فى سائره ، وألا يجد من العناء فى نسبته إليه مثل ما يجد فى شعر كثير غيره .

وهذه أربعة نصوص : قصيدتان ومقطعتان ، يختلف الرواة فى أصحابها ، فنعرضها هنا ، وندرس الخلاف فى نسبها ، عسى أن نتبين وجه الحق فيها ، فتكون بينة لما نقول :

فالقصيدة الأولى هى :

ظعن الأمير بأحسن الخلق وغدا بِلُبِّـك مطلع الشرق
مرت على قرْن يقاد بها جمل أمام بَرازِق زرق[١]
وبدت لنا من تحت كِلّتها كالشمس أو كغمامة البرق
ما صبحت بعلا برؤيتها إلا غدا بكواكب الطَّلق[٢]
فى البيت ذى الحسب الرفيع ومن أهل التقى والبر والصدق
قرشية عبِق العبير بها عبق العبير بعاجة الحُق
شب البياض أمام صفرتها فى رقة الديباج والعتق
فظللت كالمقمور خلقتَه هذا الجنون وليس بالعشق[٣]
وتَنُو فتثقلها عجيزتها نَهْضَ الضعيف ينوء بالوَسْق

رواها الديوان هكذا ، ونسبها إلى ابن قيس ، وروى الأغانى خمسة أبيات منها على ترتيب غير الترتيب ، ومع تغيير قليل فى الألفاظ ، ونسبها إلى الحارث بن خالد المخزومى ، وذكر أنه قالها فى عائشة بنت طلحة ، حين تزوجها مصعب بن الزبير ، ورحل بها إلى العراق [٤] .

---

(١) قرن : موضع من طريق مكة ، وجبل يطل على عرفات . البرازق : الفرسان ووصفهم بالزرقة من الحديد الذى عليهم.

(٢) غدا بكواكب الطلق : يريد نعم واستبشر .

(٣) قمره الشىء : سلبه إياه .

(٤) الأغانى : ٣ : ٣١٩ .

ولعل الذى سهل نسبتها إلى الحارث فى رواية الأغانى أنه كان يحب عائشة بنت طلحة ، ويشبب بها ، وأن مصعبا قد تزوجها ، ورحل بها إلى العراق . فإذا قال فى هذه القصيدة إن صاحبته قد ظعنت ، وإن الذى ظعن بها هو الأمير ، فالمتبادر إلى الذهن أن تكون عائشة هى الظعينة ، وأن يكون مصعب هو الأمير الذى ظعن بها ؛ لأن المشاكلة واضحة بين القصيدة وواقعة الحال التى قيلت فيها .

والمشاكلة على كل حال لا تستطيع أن تنحل الإنسان ما ليس له ، وخاصة حين يكون الأمر على مثال ما نحن فيه ، فالحارث لم يكن يشبب بعائشة وحدها ، ولكن بها وبغيرها ، وما كانت عائشة إلا واحدة من حبائبه ، ومكة بلد محجوج ، يسعى الناس إليه من كل جانب ومن كل طبقة ويكثر الأمراء بين وراده والصادرين عنه ، ويكثر أن يظعن منهم ظاعنون بحسان فاتنات يبهرن الشعراء ، ويثرنهم للتعرض لهن والتشبيب بهن .

وليست بنا حاجة إلى الاسترسال فى هذا ومثله ؛ ففى فن القصيدة وملامحها بدل منه وغناء . وهى فى جملتها وتفصيلها تشهد أن القصيدة لابن قيس ، وليست للحارث المخزومى ؛ فابن قيس فيها كدأبه فى قصائد الغزل الوصفى : يقظ الملاحظة ، منهوم الحس بِرَيا المحبوبة ولون بشرتها وثقل ردفيها ، ثم هو لا ينسى على العهد

به أيضاً أن ينسبها إلى قبيلتها ، ويذكر شرف حسبها ، وخصال الخير التى تمتاز بها عشيرتها بين الناس .

وتخفيف كلمة تنوء فى البيت الأخير ليس عملا خاصاً بها ، ولا قليلا فى نظائرها ، ولكنه كثير شائع الوقوع ، تدفعه إليه شنشنة أصيلة غالبة ، فيراوح بين حذف الهمزة وإدخال التسهيل عليها . وستتحدث عنه ، ونوفيه حقه من التمثيل حين الكلام عن خصائص شعره إن شاء الله .

وكلمة برازق فى البيت الثانى من الكلمات التى لها عنده حظوة ، ولها فى شعره صدى متردد ، ذكرها فى قوله:

وقد ملأت كنانة بين مصر إلى عُليا تهامة فالرُّهاء (١)
برازيقا تمر مسوَّمات وألوية تئول إلى لواء

وقوله :

كأن مجفَّفات الخيل فيه إذا مرت برازيقا فيول (٢)

ونمط الموسيقا فى القصيدة من أحب الأنماط إليه ، وآثرها عنده ، وأشيعها فى شعره .

فإن لم تكن القصيدة بعد كل أولئك من شعره حقا فهى من

---

(١) الرها : مدينة بالجزيرة ، فتحت سنة ١٧ للهجرة .

(٢) مجففات: لابسات التجافيف ، جمع تجفاف بالكسر ، لآلة حرب يلبسها الانسان والفرس ، اتقاء السلاح .

أقرب الشعر اليه ، وأشبهه به . وإذا لم يكن لنسبتها إليه حجة القطع واليقين ، فإن لها قرائن التأييد والترجيح .

والقصيدة الأخرى هي :

طرَق الخيالُ المعترِى ... وَهْنا فؤادَ العاشق
طيف ألمّ فهاجني ... للبين ، أمَّ مشاحق
الآن أبصرت الهدى ... وعلا المشيب مَفارقى
وتركت أمر غوايتى ... وسلكت قصد طرائق
ولقد رضيت بعيشنا ... إذ نحن بين حدائق
وركائب تهوى بنا ... بين الدروب فد ابق [1]

رواها الأغانى هكذا فى ستة أبيات ثم قال : الشعر للوليد ابن يزيد ، ويقال : إنه لابن رهيمة [2]

ويرويها الديوان فى أحد عشر بيتاً ، وعلى خلاف مع رواية الأغانى فى بعض الكلمات ، فيزيد بعد البيت الثانى هذه الأبيات الأربعة :

تفتر من عذب وذى ... أُشُر لقلبك شائق [3]

---

(١) دابق : قرية على أربعة فراسخ من حلب ، بها قبة سليمان بن عبد الملك بن مروان وكان سليمان عسكر بها وعزم ألا يرجع حتى يفتح القسطنطينية ، أو تودى الجزية ، فمات ، ودفن بها .

(٢) الأغانى : ٢ : ٢١٧ ، الصلب والهامش

(٣) أشر الأسنان : التحزيز الذى فيها ، يكون خلقة ومستعملا

كالأقحوان مَراتُه ومذاقه للذائق [١]
صهباءُ صِرف قرقَف شيبت بنطفة بارق [٢]
باتت تَصفقها الصبا بقرارِ بينَ شواهق

ثم يختمها بهذا البيت :

ولقد علمت بأننى ميت لقدرة خالق

والقصيدة على ما يروى الديوان ، تمثل غزل ابن قيس حين فارق الشباب ، وتقدمت به السن . وهو لون من غزله متميز ، سيأتى الحديث عنه بمكانه من موضوع « الغزل فى شعره » . وملامح ابن قيس فيها غير خافية على كل حال ، لكنها تبدو أشد وضوحاً ، وأبين دلالة فى الأبيات التى يزيدها الديوان .

فهو على العهد به رشيق الموسيقا ، يقظ الملاحظة ، كلف بمحاسن الحبيب ، يصفها ، ويحدد أقدارها بالقياس والتشبيه ، وصف العارف المتذوق . ولا ينسى أن يسهل همزة (مرآته) فى الأبيات التى يزيدها الديوان أيضا ، كدأبه فى همزات كثير من الكلمات . وسيأتى لهذه الظاهرة من ظواهر منطقه مزيد من البيان والتمثيل إن شاء الله .

فالديوان إذ يعزو هذه القصيدة لابن قيس حقيق ألا يتهم

(١) مراته : مخفف مرآته
(٢) قرقف : بارد .

بالغفلة أو قلة التحرز . وهو إن احتج حاضر البينة ، وإن اعتذر مقبول الاعتذار .

ومن يدرى لعل القصيدة كما رواها الديوان أن تكون مزيجا من مقطعتين : إحداهما للوليد أو ابن رهيمة ، وهى التى يرويها الأغانى ، والأخرى لابن قيس ، وهى التى تزيد على تلك فى رواية الديوان .

أما المقطعتان فهذه أولاهما :

ليت شعرى أفاح رائحة المسـ ... ـك وماإن إخال بالخَيف أنسى
يوم غابت بنو أميـــة عنى ... والبهاليل من بنى عبد شمس
حلماء إذا الحلوم استُخفت ... بوجوه مثل الدنانير مُلس
خطباء على المنابر فرســا ... ن عليها وقالة غير خُرس
لا يعابون صامتين وإن قا ... لوا أصابوا ولم يقولوا بلبس
ليلهم والنهـار بذل إذا ما ... قَحط القطر عن شِتاء ويُبس

رواها الجاحظ . ونسبها قولا واحداً إلى أبى العباس الأعمى[1] ورواها الديوان لابن قيس ، وذكر أيضا أنها تعزى إلى أبى العباس الأعمى .

والواقع أن فيها ملامح من ابن قيس ؛ فهو مولع بالطيب ونفائس المعدن . يستكثر من ذكرها ، فيكررها ؛ أو يفتن فى

(١) البيان والتبيين: ١ : ١٣٠

إيرادها وتأليف الصور منها ، والمقطعة بعد هذا تدور على معان كالتى اعتاد أن يدير عليها سائر مدائحه فى بنى أمية ، من مثل قوله:

ما نقموا من بنى أمية إلا ... أنهم يحلمون إن غضبوا
وأنهم معدن الملوك فلا ... تصلح إلا عليهم العرب

وقوله :

يعتدل التاج فوق مفرقه ... على جبين كأنه الذهب

وقوله :

أهل الحمالات والدسيعة والـ ... ـمفنون عند الشدائد البهما

وأما المقطعة الآخرى فهى :

إن النساء إذا يُنهين عن خلق
فكل ما قيل لا تفعلْن مفعول
وما وعدنك من شر وفَين به
وما وعدن من الخيرات تضليل
إن النساء كأشجار نبتن معاً
فيهن مُرٌّ وبعض النبت مأكول

رواها الديوان ، ونسبها إلى ابن قيس ، وذكر أيضا أنها تروى ليزيد بن الحكم . وما نرى فيها شيئا من سمات ابن قيس المعروفة ، فهى دراسة شعرية لبعض سجايا النساء ، ومدى تخالفهن فى المعدن

واللباب ، ولـكنها دراسة حانق مغضب ، لا يخفى سخطه عليهن ويأسه منهن ، ولا محل لشيء من هذا فى غزل ابن قيس لانه لا يتفق مع نظره إلى المرأة ، ولا فهمه لها ، وحظه منها ، فإنما هو مغازل متذوق ، وطلوب متفائل ، لم يصادف فى المعروف من غزله ما يثير حفيظته على النساء ، ويدفعه إلى الإزراء بهن . فما حاجته إلى الدرس والتحقيق ، ثم إلى الذم والانتقاص ، لقد كان أشد ما ينالهن منه حين أدركه الـكبر ، ووضح فى رأسه الشيب ، فأنكرنه وأعرضن عنه — أن يشكو منهن ، ويدعو عليهن بما يشبه أن يكون إقرار عاجز مغلوب ، أو استزادة عابث متماجن لا مجادة ناقم محروم :

لا بارك الله فى الغوانى فما   يصبحن إلا لهن مُطلب

والمقطعة بعد ذلك تأخذ على نمط من الموسيقا والوزن نادر فى شعره جدا ، لا نكاد نظفر به إلا فى مقطعة له أخرى .

وأعتقد أن الضياع عدا على شعره ؛ فذهب بكثير منه كما ذهب بكثير من آثار غيره . وربما كان على السياسة إثم فى هذا ، بل ربما كان إثمها فيه كبيراً وتبعتها ثقيلة ، فقد انغمر الرجل فيها من فرعه إلى أخمص قدمه ؛ فاتصـــل بالهاشميين والزبيريين والأمويين ؛ ومدحهم جميعا .

وما من أحد يطلع على ديوانه إلا يرى آثار التحيف والبترفيه

ظاهرة متنوعة ، فالمقطعات أكثر عددا من القصائد ، وكثير منها لا يزيد على البيت أو البيتين ، كقوله :

إن هــذا الليل قد غسقا واشتكيت الهم والأرقا

وقوله :

معقل القوم من قريش إذا ما
فاز بالجهــل معشر آخرونا
لا يثوبون فى العشيرة بالســو
ء ولا يفســدون ما يصنعونا

ومن المقطعات الأحادية ما لا يستقيم فى صياغة ولا رواية إلا مع صلة يتعلق بها ويعتمد عليها مثل قوله :

يوم تبدى البيض عن أســوقها
وتلف الخيلُ أعراجَ النَّعَمْ (١)

وبعض القصائد لا يخلو فيه للغرض الأصــيل الذى بنيت القصيدة له سوى بيتين اثنين أو ثلاثة أبيات فقصيدته فى مدح عبد الله بن الزبير تتألف من عشرة أبيات ، ولكن لم ينل المدح منهـا غير بيتين . وقصيدته فى مدح بشر بن مروان تتألف من تســعة ، وقد نال المدح منها ثلاثة ، لكن أولها فى خطاب المطية أن تبلغه بلاد الممدوح ، وخلاها ذم .

(١) أسوقها : سيقانها . أعراج : قطعان واحدها عرج كسهل

وإذا صح أن يكون الانقطاع أو ضيق النفس أو غيرهما من العوارض هو الذى قعد بالشاعر أن يأتى بالقدر الكافى من أبيات المدح ، فما أظن أنه كان يرضى لنفسه فى هذه الحال أن يرحل بالقصيدتين ، لينشد إحداهما فى مكة ، والأخرى إلى الكوفة أو البصرة ، فما فى صنيعه حينئذ شىء من الكياسة وصحة الفهم بله البراعة وحسن التوسل لإدراك البغية بوسائلها المضمونة النجاح وما أظن لو فعل أن الممدوحين كانا يسكتان عنه ، لا ينقدانه ولا ينكران عليه.

وبعض القصائد يبدأ بدءاً لا يشعر أنه المطلع الذى استهلت القصيدة به يوم قالها الشاعر : مثل قوله يمدح عبد الملك بن مروان:

أنت ابن معتلِجِ البطـــا ح كُدَيِّها فكَدَائِها

فبعيد أن يكون هذا البيت بتركيبه ، ونظام تأليفه هو مطلع القصيدة الذى توجه به الشاعر إلى الخليفه حين أذن له فى الإنشاد .

شعره وعصره

عاش ابن قيس فى القرن الأول الهجرى ، أى فى مرحلة من أعظم مراحل تاريخ الأمة العربية ، وأحفلها بالحوادث ، وأجمعها لأسباب التحول والانتقال .

ففى هذا القرن تكونت الدولة ، وتميزت شخصيتها ، وتباعدت أطرافها . وفيه انقسم المسلمون علويين وأمويين ، وانقسم العلويون شيعة وخوارج ، ثم انقسم هؤلاء وهؤلاء طوائف وفرقا مختلفة .

وفيه ظهرت دولة الزبيرين ، واشتد ساعدها ، حتى همت بالأموية وكادت تقضى عليها ، إلى فتن وثورات أثارها الحانقون على الدولة ، والطامعون فى انتزاع السلطان منها . وفيه حول معاوية نظام الحكم من خلافة تقوم على الشورى ، والتقيد بأحكام الدين إلى ملك يقوم على الوراثة ، ورعاية مقتضيات السياسة والاستبداد .

ولم يكن التغير الذى أصاب الحياة الاجتماعية بأقل من التغير الذى أصاب الحياة السياسية ، فقد كانت العرب فى مستهل الإسلام زاهدة متقشفة ، فلما استقرت الحال وبعد العهد بالنبى وخلفائه ، وفشا الغنى فى الناس ، وأخذ خلاط الأعاجم يعمل عمله فى النفوس بحكم التعاون ومبادلة المنافع — اتجهت الحياة فى الأمصار إلى الترف والنعيم ؛ فافتن الناس فى المآكل والملبس والمسكن ، واستكثروا

من الغلمان والجوارى ، وانبعثت من جديد مجالس السمر والغناء : يغشاها الخليون من أهل الجدة والفراغ ، ولا يتأثم منها الكثير من العلية وأصحاب السلطان . وكان مدار اللهو فى هذا الجانب من الحياة على المرأة ، هى مادة السمر وملهمة الشعر ، وعدة العبث .

ولسنا نعنى أن الحياة الإسلامية فى الأمصار كانت كلها لهوا ولعبا وخلاعة وعبثا ، وانما نعنى أنها لم تبق على العهد بها من الزهادة والتقشف ، ولكنها أخذت تتحول وتتبدل على التدريج ، فإذا أمور تنشأ ، وأمور تختفى ، وأخرى تتشكل أو تصطبغ بصبغات لا عهد للناس بها من قبل .

أما البادية فكان التغير فيها على مقدار صلتها بالأمصار ومبلغ قربها منها .

وتبع هذا التغير فى الحياة تغير مشابه فى العقلية ، بدأ بمدارسة القرآن ، وتذوق بلاغته ، والاستماع لأحاديث الرسول ﷺ ، والتفقه فى الدين واستنباط الكثير من أحكامه ، ونما بالاطلاع على أساليب الحضارات القديمة ، ومعرفة ألوان من نظم الحياة فى أهلها ، وانتهى بتهيؤ الناس لأداء نصيبهم من خدمة الثقافة ، والمشاركة فى تنمية تراث الإنسانية من العلوم والفنون .

وأظهر ظواهر هذا التغير فى الشعر أمران :

أحدهما تميز الشعر السياسى ، واشتداد قوته لمناصرة الأحزاب ونشر الدعوة لها .

والآخر استقلال الغزل، واستفاضة القول فيه، وانقسامه إلى مطبوع يصور حال المحب الواجد، ومصنوع لا يكاد يصور غير الحرص على محاكاة قدامى الشعراء فى افتتاح قصائدهم بالنسيب، ثم انقسام المطبوع إلى بدوى يغلب عليه التصون والعفة، وحضرى يغلب عليه التحلل والخلاعة.

فإذا الشعراء ثلاث طوائف متمايزة:

غزلون، يلتزمون الغزل، أو يستكثرون منه، حتى يغلب عليهم ويعرفوا به.

وسياسيون، ينتمون إلى الأحزاب، وينصبون أنفسهم دعاة لها ومؤيدين.

وآخرون متفننون، يقولون فى شتى أغراض الشعر، لا يتعصبون لحزب على حزب، ولا ينقطعون للغزل أو يستكثرون منه.

فمن أى هؤلاء كان ابن قيس؟

لقد عده الأستاذ جرجى زيدان من شعراء السياسة [١]، وتابعه على ذلك أصحاب المجمل [٢]، وعده الأستاذ الدكتور طه حسين من شعراء الغزل [٣].

---

(١) تاريخ أداب اللغة العربية: ١: ٢٩٢

(٢) المجمل فى تاريخ الأدب العربى: ٨٣

(٣) حديث الأربعاء: ١ . ٣١٦

وهو حقيق أن يعد مع هؤلاء وهؤلاء :

أما السياسة فقدقال فيها ، وعمل لها عمل الرجل الجرىء الصريح : لا يوارب ، ولا يتردد ، ولا يحجم ، ولا يقف من ميدانها بمنجاة . وقد أوذى بسببها فى نفسه وحريته ، وكان له فيها رأى لعله أن يكون وحيداً بين الآراء . وستتكلم عنه حين الكلام عن شعره السياسى .

وأما الغزل فأهم أغراض فنه ، وأوفرها نصيبا من شعره . وكانت له حبائب مذكورات تعلق بهن ، واشتهر ذكره معهن حتى أضفن إليه إضافة التمييز والاختصاص .

فشعره إذا لا ينبع من الحياة اللاهية اللاعبة وحدها ، ولكن من الحياة العاملة الجادة أيضا . وهو إذ يستمد منهما يمضى لوجهه فى استقامة ويسر ، لا يتوعر ، ولا يلتوى ، ولا يطغى على الجانبين ؛ فإذا هو نمط غير شاذ ولا نادر ، تتمثل فيه الجماعة العربية تمثلا مقاربا معتدلا .

ونستطيع أن نستشرف الحياة العامة لعهده من ثلاث نوافذ فى شعره :

إحداها تناوح العقلية العربية ، والأخرى تناوح المرأة العربية الثرية فى عصرها الجديد ، والثالثة تناوح علاقة العرب المسلمين بماضيهم والشعور الذى يحتفظون به لذكريات مجده التليد .

فأما النافذة الأولى فنحن واجدوها حيثما نقرأ شعره . وإذا نظرنا منها رأينا العقلية العربية فطرية بادية ، لكنها قد بدأت النمو وأخذت تدرج إلى الكمال : تفكير ساذج قريب ، لكنه بسبيل التشكل والتعمق ، وتخيل يسير محدود، لكنه أيضا بسبيل التصنيع وعلى أهبة الانطلاق والتحليق . ولا بأس أن نوردها هنا أمثلة منه . قال :

ألا أيها الضيف الذى يطلب القِرى
وبيتا ، تحمل ؛ ليس فى داره عمرو
وكان أبو أوفى إذا الضيف نابه
تُشب له نار وتُنضى له قدر
فيمسى ويضحى الضيف شبعان والقرى
حميد ويَبقى بعده الحمد والذكر

وقال :

وعارضٍ كالجبال من مضر الـ
ـحمراء يشفى ذا العَر من جربه (١)
وابنا نزار إذا هما اجتمعا
لم يتركا هاربا على هربه

وقال :

(١) العارض : السحاب يعترض فى الأفق . العر : الجرب .

إنى وفى الدهر الجديـ ـد عجـائب وتجـارب
بُدلت بعـد بنى ربيـ ـعة والزمان مُعاقب
جـيران سوء بينهم شُطُرَ الزمان عقارب (١)
يستأسدون على الصديـ ـق وللعـدو ثعالب
وكذلك الأبدال منـ ـها نازح ومقـارب(٢)
والدهر فيه لمن تفكـ ـر عـبرة وعجائب
إن يستطيعوا يأكـلو ك وهم لديك أقارب
حاشـا رجال فيهـم عنَ اذى الصديق تجَانب

ونجد النافذة الثانية فى غزله ، وإذا نظرنا منها رأينـا السيدة السكريمة المتحضرة خلية مترفة مسرفة ، قدكفيت كل حاجـة ، وأعفيت من كل تبعة ؛ فشغلت بنفسها ، وانصرفت إلى زينتها . أثقلتها النعمة ، وأوفرتها الدعة ؛ فعظمت جسامة وامتلاء . جوار ووصـائف ، وفراش ورياش ، وحلى وحلل ، ومسك وعنبر . استمع لقوله :

حىّ الأختين قد أَحمّ الفراق
ودنت رحلة لنـا وانطلاق (٣)
مجلس واحد نرى العيش فيه
حـين نخلو كأننـا سُرّاق

(١) شطر : بعيد ، من قولهم نوى شطر . عقارب : نمائم
(٢) الأبدال ، جمع بدل ، وهو الخلف (٣) أحم : قرب

لا يرانا من البرية إنسا
ن ، علينا من الصريم رواقُ (١)
لكمُ الله والأمانة لا نكـ
ـذب فيما نقول والميثاق
إنما تيمت فؤادىَ أختا
ن مُلَوّى عليهما الأطواق
دُرتا غائص من الهند ، مالُ الشـ
ـام يجبى إليهما والعراق
منهما الشمس أشرقت يوم دَجن
فأضاءت بنورها الآفاق (٢)
وفتاة كالبدر تحنو إليها
حين تبدو العيون والأعناق
يعجز المِطرَف السُّباعى عنها
والإزار المفُوَّف التِّلفاق (٣)

ولقوله :

ولقد عصيت الناهيا ت الناشرات جيوبهنه
حتى ارعويت إلى الرشا د وما ارعويت لِنَهينه

---

(١) الصريم : الليل (٢) أضاءت : ضاءت

(٣) المطرف : رداء من خز ، مربع ذو أعلام . السباعى : السابغ الوافى . المفوف: الرقيق . التلفاق : الثوب الملفوق به ثوب آخر :

ووجدت مسكا خالصا قد ذُرّ فوق عيونهنه
وإذا تضمخ بالعبيـ ـر الوَردِ زان وجو ههنه
يَحفَين فى المشى القريـ ـب إذا يزرن صديقهنه
وبنات كسرى فى الحريـ ـر عوامل يخـد منهنه
متعطفـات بالـبرو د على البغال وفُرْ ههنه (١)
وإذا قعدن على البغا ل مَلَـتْ ظهور بغالهنه

ولقد نراها تخرج للحج ، فلا تعدم فتى عابثا يتصدى لها بالتصبى والمغازلة ؛ عسى أن يقع منها بموقع ؛ فتأذن له بحديث ، أو تعده بلقاء :

مَن عذيرى ممن يضن بمبذو ل لغيرى علىّ يوم الطوائف؟

وقال :

حيوا حليلة بعلها سلامه
وعلى الخليل من الخليل ذَمامه(٢)
بيضاء كالورِق اللجين يزينها
وجه عليه نَضرة وقسامه
تلك التى أصفيتها بنصيحتى
هل بعد إجهاد الخليل ملامه؟

---

(١) متعطفات : مرتديات
(٢) ذمامة : عهد .

وَعَـدَتك بالبيت المبـارك أهله

هيهات مسكن من تحل تهـامه

وربما عرضت المرأة البدوية من مكان بعيد ، تتعاطى بعض أعمال عيشها النـكد ، وتستدر أخلاف رزقها الشحيح :

وحِسان مثل الدمى عبشميا

ت عليهن بهجـــة وحيـاءُ

لا يَبِعن العِياب فى موسم النا

س إذا طاف بالعياب النساء

ظاهرات الجَمال والسَّرو ينظر

ن كما ينظر الأراكَ الظباء(١)

وقال :

وبوجهها ماء الشباب ولم تُقبل بملعون ولا جَهْم

لم تدر ما نَـدْه الجمال ولم ترْبُق بربِق أول البهم

وقال :

لم يصطلــين غضى ولم يضربن للبهم الحظـــيرة

وأما النافذة الثالثه فنجدها فى الفخر والحماسة . ونحن إذ ننظر منها نرى عرب الإسلام لم تخلص كلها من حمية الجاهلية الأولى ، ولم تقطع صلتها بماضيها كله ، فما يزال فيها من يتعاطى العدوان ،

(١) السرو : الشرف والنبل

ويفخر بالاستباحة والثأر ، وما يزال فيها من يعدد محامد الجاهلية ، ويباهى بحظه منها . قال :

إن شِيبا من عامر بن لؤى
وفُتُوًّا منهم رِقاق النِّعال [١]
لم يناموا إذ نام قوم عن الوتـ
ـر بحَرْك ، فعَرْعَرٍ فالسِّخال [٢]
علّقوا أرسُن الجياد ومروا
جانِبِيها بشاحجات البغال [٣]

إلى أن قال :

فغدونا بهن فى غَبَش الليـ
ـل رقاقا كأنهن المغالى [٤]
نبتغى دِمنة لنا فى بنى العَلاّ
ت نسقى سِجالها بسجال [٥]
أدرَك الذحلَ فتية من بنى عمـ
ـر وبصبر النفوس بين العوالى
لو رأتنى ابنة النُّوَيعم ليلى
إذ نلُفّ الأبطال بالأبطال

(١) فتوا : فتيانا (٢) عرعر والسخال : موضعان ، ومثلهما حرك على مايظهر (٣) جنبه : قاده إلى جنبه . شحج البغل : صوت . (٤) المغالى : السهام يغلى بها أى يرمى إلى أقصى الغاية (٥) الدمنة : الحقد القديم . بنو العلات : بنو أمهات شتى من رجل واحد .

حين نعى أخاك بالأسَل السُّمـ
ـر وشُعثٍ كأنهن السَّعالى
لشفى نفسك انتقام بنى عمـ
ـك حين الدماء كالجِريال (١)
طلَّ من طل فى الحروب ولم يُطـ
ـلل علىٌّ ولا دماء الموالى
وبنى مالك بن حسل ثأرنا
غيرَ فخر وغير انتحال
وأصبنا بعد الرجال رجالا
وحوَينا الأموال بالأموال

وقال :

ورجال لو شئت سميتهم منّـ
ـا ، ومنا القضاة والعلماء
منهمُ ذو الندى سهيل بن عمرو
عصمة الجار حين جُبَّ الوفاء (٢)

لى أن قال :

(١) الجريال : يطلق على حمرة الذهب ، وسلافة العصفر

(٢) سهيل بن عمرو . من بنى عامر بن لؤى ، وناثب قريش فى صلح الحديبية ، أسلم عام الفتح ، وتوفى فى خلافة أبى بكر ، أو أوائل خلافة عمر .

والذى إن أشار نحوك لـَطْما
تبع اللطمَ نائل وعطـاء (١)

والبحور التى تـُعد إذا النـا
س لهم جاهليـــة عميـاء

يُطعمون السَّديف من قَحَد الشَّـ
ول مَنَ اوَتْ إليهم البطحاء (٢)

فى جفان كأنهن جـــوابٍ
مُترَعاتٍ كما تفيض النـِّهاء (٣)

وهُم المحتبون فى حلل اليُمـــ
ـنة فيهم سماحة وبهـاء (٤)

أقسموا لانزال نـُطعم ما هبـــ
ـــت رياح الشمال والأصباء

ونرى العربى المسلم لا يزال يتعصب لقبيلته ، ويزهو بالانتماء إليها ، ويرى حقا عليه أن ينصرها ، ويدافع عنها :

نحن الصريح إذا قريـــ ش قام منها النـــاسبُ
مِن سرها وأرومهـــا إذ لِــلأروم مراتب

(١) يريد عبد الله بن جدعان ، وكان كبر لحجر عليه أهله ، فكان إذا جاءه الرجل يسأله قال : سألطمك ؛ فلا ترضى ، حتى يفتدى منك ، أو تلطمنى .

(٢) القحد : أصول السنام . الشول : النوق ، مضى عليها من حملها أو وضعها سبعة أشهر ؛ يجف لبنها

(٣) الجوابى : الحياض ، يجبى فيها الماء للابل ، أى يجمع . النها : الغدران

(٤) اليمنة : برد يمنى .

وقال :

إنى امرؤ لا يُزدرى دفعى عنَ اعراض العشيره
فى بيتهـــا حسَبا ومن أخـــلاق صالحها سريره
أنفى القَـراقير الصغـار وأحطِـم الفلك الـكبيره[١]

وثمة مشاهد أخرى من الحياة يمكن أن نطل عليها من شعر ابن قيس ، لـكنا أغفلنا ذكرها هنا إما لأن غير هذا المكان أولى بها ، فتركناها له ، وإما لأنها ليست بذات بال ، فتركناها جملة ، وأخلينا منها كل مكان . ولسنا نزعم أن ابن قيس فى هذا الذى ذكرنا وحيـــد ، ولا أنه بلغ فيه ما لم يبلغ شاعر آخر ، فلـكل شاعر نصيب من التعبير عن عصره وتصوير الحياة فيه ، أراد أم لم يرد ، ولـكن نصيب ابن قيس من ذلك جدير بالتسجيل، فشعره كما سلف متشعب فى منبعه ومجراه ، وليس فى نوعه شاذا ولا نادرا.

---

(١) القراقير : السفن . والواحد كعصفور.

خصائص شعره

لكل شاعر فى فنه خصائص تميزه وتدل عليه ، كما أن لكل إنسان فى شخصيته خصائص تميزه وتدل عليه . ومن الخصائص مشترك لا يتفرد به صاحبه ، ومنها مفرد لا يجاوز صاحبه ، أو لا يكاد يجاوزه . واشتراك الخصائص لا يسلبها حق الدلالة والتمييز ما بقيت فى نطاقها المرسوم ، وإلا عدت من خصائص الجماعة أو الجنس الذى تشيع فيه ، غير أن دلالة الخصائص المشتركة لا تكون طبعا للتعيين والتحديد ، بل للإيضاح والتخصيص . والخصائص المفردة التى ربما تكون إلى جانبها هى التى تتولى معها أو تتولى عنها إزالة الشيوع واللبس ، على حسب مبلغها من العدد ، ومبلغها من خصوصية التعيين . والخصائص المفردة هى التى تدل على مدى استقلال صاحبها ، ومدى مفارقته للجماعة التى يعزى إليها أو الجنس الذى هو أحد من آحاده . أما الخصائص المشتركة فتدل على مدى موافقة الفرد للجماعة أو الجنس ، ومدى مطاوعته لعوامل البيئة وأحوال المعيشة التى تحيط به .

وإذا تناولنا الخصائص الفنية فى شعر ابن قيس من هذه الناحية وبهذه المعايير — نجدها على الإجمال الصورة الطبيعية المطابقة

لمقتضيات شخصيته ، وظروف عصره وبيئته ، لاشذوذ ولا تمرد ولا خلاف. فهذه الخصائص فى العبارة واللفظ، وفى المعنى والخيال وفى الوزن والقافية لا تكاد تحيد عن المعهود من خصائص الشاعر الغزل ، الرقيق الطبع ، الخفيف الروح ، ينشأ فى حضر البادية ، ثم يتاح له التطواف فى الأمصار ، إذ العهد بالجاهلية قريب ، وإذ لا يزال كتاب الله الكريم وحديث رسوله صلى الله عليه وسلم يخلبان الألباب ، ولا يزال إليهما المرجع فى التهذيب والهداية والتثقيف .

فكانت عبارته لينة يسيرة التأليف ، ليس فيها تعقيد ولا التواء وليس فيها شيء من أعمال الضرورة وضيق الحيلة : فلا تقديم هناك ولا تأخير ، ولا تراكب ولا زحام ، ولا حشو ولا إقحام ، وإنما هناك تجانس المفردات ، واستواء النسج ، واتساق النمط . وألفاظه سهلة خفيفة الوقع ، لا فيها غرابة ولا خشونة . ويشيع فى شعره الأخذ عن القرآن الكريم ، تارة بالنص ، وتارة مع شيء من التبديل تقتضيه طبيعة الوزن والقافية . مثل قوله :

قتلتِ نفسا بغير نفسٍ ولم تُقتل ولم تُستقد ولم تُقِد[1]

ففيه من قوله تعالى : « من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فسادٍ فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا

(١) لم تستقد : لم تسأل القصاص ، ولم تقد : لم تقتص .

وقوله :

يأمر الناس أن يبرّوا وينسى وعليه من كَبرة جلبـاب
أيها المستحل لحمىَ كُلْـه من ورائى ومن وراك الحساب

ففى البيت الأول من قوله تعالى : أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم ، وأنتم تـتلون الـكتاب أفلا تعقلون ؟ » وفى البيت الآخر من قوله : « ولا يَغتب بعضكم بعضا ، أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا ؟ »

وقوله :

لو بكت هذه السماء على قو م كرام بكت علينا السماء

ففيه من قوله تعالى : « فما بكت عليهم السماء والأرض ، وما كانوا مُنظرين » .

وقوله :

فى جِفان كأنهن جوابٍ مُترعات كما تفيض النهاء

ففيه من قوله تعالى : « يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب . . »

وقوله :

ليس لله حرمة مثل بيت نحن حُجّابه عليه المُلاء
خصه الله بالـكرامة فالبا دون والعاكفون فيه سواء

ففيه من قوله تعالى : « إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجدِ الحرام الذى جعلناه للناس سواءً العاكف فيه والباد »

وقوله :

جزى الله يوم المَرْج رعلا وقنفذا

جزاء كريما يوم تُبلى البواطن »

ففيه من قوله تعالى : « إنه على رجعه لقادر يوم تُبلى السرائر »

هذه أمثلة لمقابس الشاعر من القرآن الكريم ، وهى كما ترى منوعة الموضوعات ، متعددة المواطن ، حسنة التمهيد والإصابة وهيهات أن يتهيأ مثلها لغير حافظ متمكن محيط .

على أنه حين يصف الإبل والخيل يجنح فى لغته إلى التوعر والشدة ، فإذا ما خلص منها وأخذ فى سواها عاد إلى العهد به . من التسهل ، والرقة ، واللين . فهذه الصفات إذا أصيلة فيه معرقة . أما التوعر والشدة فعرض مؤقت تقتضيه طبيعة الموضوع ولغته ، ولكن لا صلة له بذوق الشاعر وفنه . ومن قوله فى وصف ناقة :

فَتَعدَّ الغداة عن ذكر نعم

نازح غَولها بعيد المساف (١)

بذَمُول عَيْرانة ذات لَوْث

عَنْتريس شِمِلَّة مقذاف (٢)

---

(١) الغول : جماعة الطلح لشجر من أشجار العضاه ، وهو كل شجر يعظم وله شوك .

(٢) ذمول : لينة السير . عيرانة . مسرعة ، نشيطة . لوث . قوة . عنتريس . غليظة قوية . شملة . سريعة . مقذاف . تتقدم الابل لسرعتها

عنتريس تنفى اللُّغام بمثل السـّ
بت هوجاء كالجُلال الخُفاف (١)

وهو يتناول معانيه من قريب ، ويعرضها كما وقعت له ، غير متكلف جهداً ، ولا محاول صنعة ، فإذا هي المعاني الأول التي تسرع إلى الذهن للنظرة المعجلة والتفكير اليسير . وهيهات أن نجد عنده معنى عميقاً ، أو خيالا مركباً ، أو حكمة مرسلة ، أو أى مظهر من مظاهر التجشم والكدح . وسنعود إلى الحديث عن هذا وأسبابه حين نتحدث عن الوصف فى شعره . وهذا مثال من معانيه ، جئنا به عفوا ، دون تعمد ولا بحث ولا اختيار :

رقية تَيَّمَتْ قلبى ... فوا كبدى من الحب
وقالوا : داؤه طِب ... ألا بل حبها طبى
نهانى إخوتى عنها ... وما للقلب من ذنب
وعن صفراء آنسة ... كخُوط البانة الرطب
وما أقبلُ نصح النا ... صحى من شدة الكرب

وهو ينسحب قصار البحور على طوالها ، والمجزوءات منها على الكوامل ، ويغلو فى ذلك غلواً كبيراً ، فيندر أن تظفر فى شعره بقصيدة كاملة إلا على وزن قصير أو طويل مجزوء ، ثم هو لا يفرق

(١) اللغام : زبد الابل . السبت . يطلق على جلد البقر وعلى كل جلد مدبوغ . الهوجاء : الناقة المسرعة كأن بها هوجا . الجلال . الجل العظيم . الخفاف . الخفيف .

فى هذا بين مقام ومقام ، ولا بين موضوع . وموضوع قال يمدح مصعب بن الزبير :

لَمصعب عند جد القول أكثرها وأطيبها
وأمضاها بألوية يسد الفَجَّ مِقنَبُها[١]
إذا خرجت برايته سراياها وموكبها
بنصر الله يعلوها ويَمريها ويغلبها[٢]

وقال يرثيه :

إن الرزية يوم مَسْكن والمصيبة والفجيعه
بابن الحَوارِىِّ الذى لم يعده أهل الوقيعه[٣]
غدرت به مضر العراق وأمكنت منه ربيعه

وقال فى الغزل :

تركت قلبى قريحا لا أراه مستريحا
خيَّرَتنى بين أن أكتم سراً أو أبوحا
ولقد تعلم أنى كنت بالسر شحيحا
أتقى الله وأخزى وأقى عرضى الفُضوحا[٤]

(١) المقنب : جماعة من الخيل تجتمع للغارة
(٢) مرى الشىء : استخرجه ، والدم ونحوه أرسله .
(٣) الحوارى : الناصر ، ولقب الزبير به لقول الرسول عليه السلام : « الزبير ابن العوام ابن عمى ، وحوارى من أمتى »
(٤) الفضوح : كشف المساوىء

وقال فى الفخر :

رُبَّ بيد ودونها   ناضب أو كناضبِ [١]
وذرا قُف سَبْسب   لاحق بالسباسب [٢]
قد تجشمت نحوكم   بعتاق النجائب
ما معى غير صارم   لىَ والله صاحبى

والبحور القصار حرية أن تعجبه ، وتخف عليه ، فيؤثرها ويستكثر منها ، فإن لها من تدارك الحركات ، وتموج الموسيقا وسرعة التجاوب مايلائم حسه الرقيق ، وطبعه المشرق ، وذوقه اللطيف. أما البحور الطوال فهيهات ، لشدة جرسها وتوفر حركاتها وجهارة سمتها ، وتباعد ما بين مقاطع الأنغام فيها .

وهو يتخير قوافيه ، ولا يألو أن تكون طريفة معجبة ، رعاية لحسن المشاكلة بينها وبين جرس البيت ، وتحريا للرقة والظرف فى كل شىء . ولقد اجتمع لبعض قوافيه حظ من الرشاقة ولطف المخالعة يندر أن يجتمع مثله فى قواف من شعر غيره. قال فى الغزل :

بَكَرت علىّ عواذلى   يَلحَينى وألومهنه
ويقلن شَيب قد علا   كَ وقد كبرت فقلت : إنه [٣]
إن العواذل لمننى   ولن أطيع أمورهنه .

---

(١) ناضب : بعيد ، أو قليل الخصب .

(٢) القف : الأرض المرتفعة . السبسب : المفازة .

(٣) إنه : يريد إنه كذلك ، ويصح أن تكون حرف جواب بمعنى نعم، والهاء للسكت

وقال :

سائلا فنْدا خليـــلى   كيف أرواح رقيـــه [١]
إننى بُـدِّلت منهـــا   بدلا حُـبٌّ إليّـــه
إنـــنى بدلت خَـوْدا   ذات دَل بَخْـتَريه [٢]
غادة الجسم رَداحـــا   مثل قرن الشمس هِيَّـه
نبتت كالغصن وسْط الـ   ـماء فَرْعَى قرشيـــه
فابتغى غـــيرى صديقـا   ثم لا تأسَىْ عَـليَّـه

وقال فى رثاء قتلى الحرة من أهله :

ذهب الصبا وتركت غَـيَّـتيه   ورأى الغوانى شيب لِمَّتيه [٣]
وهجرننى وهجرتهن وقد   غَـنيتُ كرائمها يطفن بيه [٤]
إذ لمتى ســـوداء ليس بها   وَضَـح ولم أُفجع بإخوتيه
الحاملـــين لواء قومهـــمُ   والذائدين وراء عورتيـــه
إن الحوادث بالمدينـــة قد   أوجعننى وقرعْن مَرْوتيه [٥]

(١) فند : هو فندمولى عائشة بنت سعد بن أبى وقاص. (٢) البخترية : الحسنة المشى والجسم (٣) الغية . الضلال . اللمة . الشعر المجاور شحمة الأذن ، أى معلق القرط منها . (٤) غنيت . عاشت . (٥) المروة : الحجر الصلد ، وقرعن مرونه : أنزلن البلاء به .

أغراض شعره

يتفاوت الشعراء فيما يتناولون من أغراض الشعر، كما يتفاوتون في مبلغ البراعة فيه، وفي كل أمر آخر له به اتصال. وتعدد أغراض الشاعر لا يعد في نفسه مزية يحمد عليها، وتحسب له في كفة الرجحان، فليس الأمر تكاثرا ولا مغالبة بالعدد، ولكنه قبل كل شيء تفاضل في مبلغ الإجادة والإتقان. ولأن يتخصص الشاعر بغرض يعكف عليه، وينقطع للتأتي له، فيبز أقرانه فيه، ويبلغ منه ما لا يبلغون خير من أن يجول في جميع الأغراض ثم لا يكون له في واحد منها تقدم ولا امتياز.

ولم يكن من هم ابن قيس أن يستكثر من أغراض الشعر، أو أن يقصر نفسه على غرض واحد لا يعدوه. ولكن همه كان أن يقول فيما يعنيه، ويتحرك له وجدانه. فلا تكلف ولا اعتساف. وكانت المرأة والسياسة أهم ما يهمه من الأمر. وقد ذهبت الأولى بغزله، والأخرى بمدحه، وهما جمهرة شعره.

أما الرثاء فتشترك السياسة فيه والتعاطف. وربما شارك الاستمناح فيه وفي المدح أيضا. فما نعرف لقصيدتيه في طلحة الطلحات سببا أبين ولا أقرب من الاستمناح والحاجة إلى المال. وأما الوصف والفخر فداعيتهما عابرة، وخطرهما دون

خطر بقية الأغراض ، وقد كان له فى غير الوصف بديل منه فيما كان بسبيله . والفخر غرض شخصى ، عائدته إلى صاحبه قبل أن تسكون إلى سواه ، لهذا أقل منهما ، ولم يكن يقصد إليهما إلا لماما ، وفى قصائد مشتركة . وأما الهجاء فأحسب أن لم تسكن به إليه حاجة ، بل أحسب أنه لا يتفق مع مزاجه ولا مع مذهبه السياسى . فقد كان فى طبعه امرأ سمحا عطوفا مسالما ، يحب السلم ، ويؤثر البداءة به ، ليس يعدل عنه إلا كارها أو مضطرا . وكان فى سياسته على ما سيأتى — قرشيا لا حزبيا ، يدعو إلى الجماعة والوئام ، وينسكر التحزب والخصام ، فمن عسى أن ينالهم بالهجاء؟ وأى غرض هناك يرمى به إليه ؟ وأى داعية تدعوه إلى تعاطيه غير مخالف طبعه ورأيه فى سياسة الأحزاب ؟ لهذا كان الهجاء فى شعره نادرا لا يكاد يجاوز بضعة عشر بيتا .

فالأغراض التى قال فيها ابن قيس شعره هى : الغزل ، والمدح السياسى ، والرثاء ، والوصف ، والفخر والهجاء . وشعره فيها متفاوت المقادير ، ولسكنه غير متفاوت فى منازل الإحسان . فهو فى كل منها محافظ على طبقته وخصائصه ، لا يسف ، ولا يعلو ، ولا يتشكل بغير شكله المعهود ، لأنه كما أسلفنا لم يشأ أن يتكلف القول فيما لا يعنيه ، ولا تجيش نفسه بالقول فيه .

الغزل :

لم يكن ابن قيس صانع غزل ، ولا متكلف صبابة ، ولـكنه كان عاشقا واجدا ، له ذوق ، وفيــــه ولوع بالجمال ، ونزوع إلى المعابثة واللهو . تتصباه الحسان، فيعلق بهن،ويتلمس السبيل إليهن؛ فيبلغ أربه ، أو يذاد عنه ويختلف عليه ما يختلف على العشاق : من أمل ويأس ، وانقبـاض وانبساط . لـكنه كان مشترك القلب ، موزع العواطف ، فما يصبر على محبوبة واحدة ، ولا يغنى بطلبها والتغزل بها عن طلب غيرها والتغزل به ؛ فلكل من المزية والمذاق ما ليس لغيرها ؛ فليطلبهن جميعا إن استطاع ، وليجعل غزله قسمة بينهن جميعا أيضا إن استطاع ؛ ليطفىء تحرقه ، ويشبع نهمه . وإنما مثله معهن كمثل النحلة الطلوب مع الأزهار ، لا تغنى ببعض عن بعض ، ولا تـكف عن البعيد قناعة بالقريب . وكأنما كان شوقى رحمه الله يستلهم رأى ابن قيس فى المرأة وحاله معها حين يقول فى الخمر :

هات اسقنيها غير ذات عواقب
حتى نُراع لصيحة الصَّفّاق[1]
صرفا مسلطة الشعــــاع كأنما
من وجنتيك تدار والأحداق

(١) الصفاق : الديك

حمراء أو صفراء إن كريمهـــا
كالغيـــد ، كل مليحة بمـذاق

ولقد يساوره الشوق ، وتهيجه الذكرى ؛ فيعلق خياله بأربع من حبائبه جملة واحدة ، تتسع نفسه لهن ، ويطيب له الحديث عنهن فى وقت معا :

ألا أيها القلب اللجوج المعـــذبُ
علام الصبا والغى والرأس أشيب ؟
طربت لتغريد الحمـــام وربمـا
صبوت وقد يهفوا الـكريم فيطرب
ألا إنمـــا ليلى مَهـــاة غَـرِيرة
وسعدة فى أترابهـا البيض رَبْرَب
وسلامة الـكبرى غـدير وروضة
وسلامة الصغرى غزال مُرَبّـب(١)

وتتأهب إحدى صواحبه للرحيل ؛ فتقوم إليها جواريها ، يصنعنها ، ويلبسنها الحلى والحلل ، فيعلق قلبه بهن ، كما علق بالسيدة ويتبعهن نفسه معها ، ويتشوق إليهن جميعا :

إن فى الهودج المحَـفّـف بالديـ
ـباج رئمـا مع الجوارى ربيبا
صنَّعته أيدى الجوارى وعَلّقـ
ـن عليه زبرجـــدا مثقوبا

(١) مربب : ربى فى البيت

ظلت من شجوها وشجو اللواتى
صنعتهـــا أنادى الطبيبـــا

وربما سنح له المنظر الرقيق الأنيق ، فيه حب وحنان ، وفيه رشاقة وجمال ، ولكن لامجال فيه لمغازلة ولهو ، فيرتاح له ، ويعجب به ، ولا يدعه حتى يخلده ، ويبعث التحية إلى صاحبته :

حييتِ عنا أمَّ ذى الوَدْع
والطوق ذى الخرزات والجَزْع (١)

تحنو على طفـــل تلاعبـــه
صَلتِ الجبين لسادة صُلْع (٢)

يبـــكى فتسكتـــه ببردتها
وعليـــه منهـــا مائل الفَرع

مُغْدَوْدِن جمعت ذوائبها
بالمسك حُق مجيـــدة الجمع (٣)

وغزله فى جملته صدى لأهوائه ، وصورة للانفعالات التى تتوارد عليه ، فهو إما رغبة ومحاولة ، وإما حكاية وتصوير . فمن الأول قوله :

---

(١) الجزع : خرز فيه سواد وبياض
(٢) صلت الجبين : واضحه .
(٣) مغدودن : طويل ملتف .

رُقَىَّ بعمركم لا تهجرينا
ومنينا المنى ثم امطلينا
عِدينا فى غد ما شئت إنا
نحب ولو مطلت الواعدينا
فإما تنجزى عِدَتى وإما
نعيش بما نؤمل منك حينا
تَقِنّ الله فىَّ رُقَىّ واخشَى
عقوبة أمرنا لا تقتلينا

ومن الآخر قوله :

هل بادِّكار الحبيب من حرجِ
أم هل لِهَمِّ الفؤاد من فرج ؟
أم كيف أنسى مسيرنا حُرُما
يوم حللنا بالنخل من أَمَج ؟ (١)
يوم يقول الرسول قد أُذِنت
فأت على غير رِقْبة فَلِج
أقبلت أمشى إلى رحالهم
فى نفحة نحو ريحها الأَرِج

(١) حرما : محرمين ، الواحد حرام . النخل وأمج : موضعان

تَهْوِى يداها بِشَفٍّ زينتها
يُصِمُّنى صوت حليها الهَزِج (١)
تشف عن واضح إذا سفرت
ليس بذى آمة ولا سمج (٢)

وكان تعلقه بالجمال ، واشتداده فى طلبه ، والتماسه المتعة به على قدر نفرته من الدمامة ، واستهانته بصواحبها ، ورثائه للمبتلين بها :

زعم ابن قيس وهو غير مكَذَّب
أن القِباح برزقهن غوالى
إن القباح على الرجال رزية
لا تنكحنّ قبيحة بقِبال (٣)
ما للقباح رزقن كل خطيئة
نَفَلا كما ذمَّمْن كل جمال (٤)

ويذكر فى إحدى غزلياته أنه كان فى حبه عفا بريئاً ، لا يتلمس الجمال لينال منه ، ويأثم فيه ، ولكن ليتمتع بالنظر إليه من بعيد لأن فيه كرما يرده عن التى لا تجمل ، ويعصمه من التورط فى

(١) تهوى يداها : تمتدان وترتفعان . شف : فضل
(٢) الآمة : العيب والنقص .
(٣) القبال : زمام النعل بين الاصبع الوسطى وتاليتها
(٤) ذممه : بالغ فى ذمه

الآثام ، وإذا كان هناك من يتهمه ، ويشيع عنه السوء فما هو بصادق ولا أمين ، ولكنه كاذب مخادع ، يقول عنه ما لا يعلم ، ويرميه بما ليس فيه ، قال :

رَجل أنت همه حين يمسى
خامرته منَ اجلك الأوصاب
لا أشم الريحان إلا بعينى
كرما إنما تشم الكلاب
رُب زار على لم ير منى
عثرة وهو مِمئأس كذاب(١)
خادع الله حين حل به الشيـ
ـب فأضحى وبان منه الشباب

ومع ذلك ليس يخلو غزله من المواعيد والمقابلات ، ولا من التماس الحيل واتخاذ الرسل يذهبون بالرجاء والاستنجاز ويعودون بالنهى والتحذير أو بالإغراء والحث على المبادرة . ومن ذلك قوله:

بَشّرَ الظبي والغراب بسعدى
مرحبا بالذى يقول الغراب
قال لى : إن خير سعدى قريب
قد أنَى أن يكون منه اقتراب (٢)

---

(١) ممأس : مفسد نمام
(٢) أنى . دنا

قالت : أنى يكون ذاك قريبـــا
وعليه الحصون والأبواب ؟
حبذا الرئم والوُشاحان والقصـ
ـر الذى لا تناله الأسبـــاب
إن فى القصر لو دخلنا غزالا
مُـوصَـدا مُصْفـَقا عليه الحجاب[1]
أرسلت أن فدتك نفسىَ فاحذر
شرطة ها هنا عليك غضاب
أقسموا إن لقوك لا تَـطعَـم الما
ء وهم حين يقدرون ذئاب
قلت : قد يغفُـل الرقيب وتـُغفِى
شرطة أو يحين منها انقلاب
وعسى الله أن يُـؤتـّىَ أمراً
ليس فيه على المحب ارتقاب[2]
ارجعى فاقرئى السلام عليها
ثم ردى جوابنا يا رباب
حدثيهـــا بما لقيت وقولى :
حق للعاشق الكريم ثواب .

---

(١) مصفقا : مغلقا .
(٢) يؤتى : يهيء .

بل ليس يخلو غزله من التقحم والاستهانة بالخطر ؛ إذ كان بعض الأحيان يدب إلى حبائبه فى هدأة السكون وظلمة الليل، وإنه ليعلم أن الحراس هناك حانقون عليه ، ومتربصون به ، قد نذروا دمه ، وودوا لو يشربون منه :

تَقِنّ الله فىّ رُقىّ واخشَى
عقوبه أمرنا لا تقتلينا
بعيشك وارفقى بى أم عمرو
ويوم رجال أهلك ينذُرونا
دمى ، ثم اندخلت إليك حتى
تخطيت النيام الحارسينا
فبِتّ تمسهم قدمى وثوبى
وودوا من دمى لو يشربونا

وسواء أ كانت علاقة ابن قيس بحبائبه بريئة كما يقول ، أم لم تكن كما يقول خصمه الذى تحدث عنه فى أبياته السابقة لهذه — لقد كان فى تشبيبه متصونا عف اللسان ، لا يقول خنا ، ولا يصرح بفسوق . وأشد ما له فى الغزل من العبث واللهو قوله :

ومثلك قد لهوت بها تمام الحسن أعيَبُها
لها بعل غيور قا عد بالباب يحجبها
يرانى هكذا أمشى فيوعدها ويضربها

ظللت على نمارقها أفديها وأخاتُبها

أحدثها فتؤمن لى فأصدقها وأكذبها

وقد يأخذ فى غزله إخذ الجاهليين وشعراء البادية ،فيقف بدار الحبيب وقد رحل عنها أهلها ، فاذا هى قفر خلاء ، وإذا الأيام والحوادث قد نالت منها ، فأصبحت معالم ورسوما ، لا غناء فيها ولا علم عندها ، فهو يتأملها ، ويردد النظر إليها ، عسى أن يعرفها فلا يستطيع إلا تذكرا يشبه أحلام النائمين ، قال :

ما هاج من منزل بذى عـــلم

بين لوى المنجشون فالثّــلَـم

فبين قَـوّ عفت معارفَ مَبـ

ـداك بها الغاديات بالرِّهَـم[1]

لم تبق منها الرياح مَعلمة

إلا بقايا الثُّـام والحُـمَـم[2]

وقفت بالدار ما أبينهـــا

إلا ادكاراً توهمَ الحلم

بادت وأقوت من الأنيس كما

أقوت محاريب دارس الأمم

---

(١) مبداك : مقامك بالبادية . الرهم . جمع رهمة . وهى المطرة الضعيفة الدائمة .

(٢) الثمام . نبت ضعيف لايطول . الحمم . كل ما احترق بالنار . الواحد. حممة

واستبدل الحى بعدها إضَمَا

هيهات غمر الفرات من إضم[١]

ولابن قيس بعد هذا صورتان مختلفتان فى غزله ، فهو فى شبابه عابث طروب ، قوى العاطفة ، موفور الحس ، يستجيب لنوازع الشباب ، ويأخذ له من المتعة بنصيب . فهو مدل متفائل ، وواثق طلوب ، وقد مضت آنفا أمثلة لهذه الصورة. أما فى الكبر فيتراءى شيخا ضعيفا . علت به السن ، وظهر فى رأسه الشيب، فوهن عزمه وشاب أولاده . له ماض مع النساء ، وفيه من النزوع إليهن بقية فهو يصبو إليهن ، ويودلو يجاملنه ويرفقن به ، لكنهن يعرضن عنه ، ويهزأن به ، وينكرن عليه الصبابة والغزل فينقلب كاسفا محزونا ، يبكى الشباب ، ويحن إليه ، ويمقت المشيب ويضيق به وقد يشتد به السخط على الحسان ، فيدعو عليهن ،ولكن فى عطف ومودة . وربما غلب عليه اليأس ، وتمثل له الموت قريبا منه ، فاستسلم للواقع ، وراح يروض نفسه عليه قال :

طرق الخيال المعتَرِى وَهْنا وساد العاشقِ

طيف ألم فشاقنى للخَود أمّ مساحق

تفتر عن عذب وذى أُشُر بقلبك شائق[٢]

(١) اضم . جبل ، واسم لجزء من الوادى الذى تقع فيه المدينة المنورة .

(٢) أشر الاسنان . التحزيز الذى فيها .

كالاقُحوان مَرَاتُه ومــذاقه للذائق (١)
صهباء صرف قَرْقَف شيبت بنطفة بارق (٢)
باتت تصفقها الصَّبا بقرار بين شواهق (٣)
الآن بُصرت الهوى وعلا المشيب مفارقى
وتركت أمر غوايتى وسلكت قصد طرائقى
ولقد رضيت بعيشنا إذ نحن بين عواتق
وركابنا تهوى بنا بين الدروب ودابق
ولقد علمت بأننى مَيْت لقدرة خالق

وقال :

ذهبت ولم تزر أهل الشفاء
ومالك فى الزيارة من جَداء (٤).
كبرت فلست من شرط الغوانى
وفارقت الصبا غيرَ الخفاء
وشاب بنوك فاستحييت منهم
وأبت إلى العَفَافة والحياء.(٥)

---

(١) مراته : مرآته .
(٢) قرقف : بارد . بارق : سحاب ذو برق .
(٣) تصفقها : تحركها
(٤) جداء : نفع
(٥) العفافة . العفة .

وقال :

لا بارك الله فى الغوانى فما
يصبحن إلا لهن مـطّلـَب
أبصرن شيبا علا الذؤابة فى الرّ
أس حديثا كأنه العُطـُب[١]
فهن ينكرن ما رأين ولا
يُعرَف لى فى لداتىَ اللعب

وهو يهتف فى غزله بكثير من أسماء حبائبه ، يهتف بسلمى ، وسعدى ، وسلامة ، والثريا ، وأسماء ، وغيرهن . وإذا قدرنا أن عدد حبائبه كان على قدر عدد الأسماء التى هتف بها فى غزله، وأنه لم يكن يكنى باسم عن غير صاحبته كانت جملة من تعلق بهن لا تقل عن أربع عشرة امرأة . ويبقى بعد ذلك الغزل الذى لم يشأ أن يذكر أسماء صواحبه فيه : لا ندرى أهو فى بعض من هتف بأسمائهن أم فى معشوقات أخر لم تسمح الظروف له أن يصرح بأسمائهن فيما صرح به من أسماء . واسم الرقيات على كل حال كان كما سبق أكثر الأسماء دورانا ، وأشيعها ذكراً فى غزله .

ويقول صاحب الأغانى : إن رقية بنت عبد الواحد بن أبى سعد العامرية كانت أحب الرقيات إليه ، وآثرهن عنده[٢] .

(١) العطب . القطن .

(٢) الاغانى : ٥ : ٧٤ .

وقد عرف من غزله فيها ثلاث مقطعات ، خاتت كل منها من الوصف الكاشف الذى يدل عليها ، ويميزها بين الحسان . وكل ما هنالك ملامح عامة ، يقل ألا ترى فى عربية مدلة حسناء .

قال من إحدى مقطعاته فيها :

مَن عذيرى ممن يضن بمبذو
ل لغيرى علىّ عند الطواف ؟ (١)
أحور العين فائق الحسن حلو الـ
قول مر الفعال ذى إخلاف
يَعِدُ العَوْدَ ثم يُلفَى بخيلا
كاذب العهد وأيُه غير واف
إن فى اليأس فاعلمى أمَّ عمرو
راحة والبيان للمرء شاف

وقال من أخرى :

إننى عُلّقت خَوْدا ذات دَل بَخترِيّه
غادة الجسم رَداحا مثل قرن الشمس هيّه
نبتت كالغصن وسط الـ ماء فرعى قر شيه

وقد سبقت رواية هذه الأبيات حين الكلام عن خصائص شعره . والقطعة الثالثة هى :

(١) يريد كما يقول الأغانى أنها تقبل الحجر الاسود ، وتضن عليه بقبلتها .

حَسَبٌ ذاك الدل والغُنُج
والتى فى طرفهـــا دعج (١)
والتى إن حدثت كذبت
والتى فى وصلها خَلَج (٢)
تلك إن جـــادت بنائلهـــا
فابن قيس قلبـــه ثلِج
وترى فى البيت سُنتهـــا
مثل مافى البيعة السُّرُج (٣)
حدثونى هـــل على رجل
عاشـــق فى قبـــلة حرج

ويذهب الأستاذ الدكتور طه حسين إلى أن غزل ابن قيس بأم البنين كان هجائيا ، أو بوصف آخر سياسيا ، أراد به الشاعر أن يغيظ الأمويين وينال منهم ، لا أن يصف جمال أم البنين ، ويصور حبه لها . لكن الأستاذ الدكتور لايقيم لرأيه هذا دليلا ، ولا يذكر له سببا صريحا . وكل ما هنالك تفريع منه يقول فيه : « إن ابن قيس قد وصل من هذا الغزل الهجائى إلى كل ما كان يريد

(١) الغنج : حسن الدل . الدعج : شدة سواد العين مع سعتها
(٢) الخلج : الاضطراب .
(٣) السنة : الصورة.

فأحفظ بنى أمية عليه أشد إحفاظ حتى أهدروا دمه ، وأبرءوا ذمتهم ممن آواه »[١] واقتبس الأستاذ أحمد الشايب هذا الرأى فى كتابه تاريخ الشعر السياسى ، ولكن دون تعليق عليه ، ولا استدلال له[٢].

ومعنى هذا وذاك أنهما يريان أن إهدار الأمويين دم ابن قيس إنما كان لسبب تشبيبه بأم البنين ، ولعلهما يريان كذلك أن هذا يستلزم أن تشبيبه بها كان سياسيا .

ولست أرى رأيهما فى ذلك ، سواء ما صرحا به ، وما يمكن أن يفهم باللزوم والاستنباط . فالأمويون كان يمكن أن يهدروا دم ابن قيس لتشبيبه بأم البنين لو لم يكن له إليهم ذنب آخر عظيم ، يبيحهم دمه ، لكننا نعلم أنه كان لهم عدواً مبينا ولأعدائهم ولياً حميا ، ناصرهم ، وجاهد معهم لهدم الأموية ، وإقامة دولتهم على أنقاضها بكل ما يملك من أسباب المناصرة والجهاد . فكيف إذا أهدر الأمويون دمه لايكون إهداره لغير التشبيب بأم البنين ؟ أتراهم فيما لا يضيرها كانوا أغير عليها وأشد حماسة لها من الخلافة؟

صحيح أن ابن قيس لم يكن ليشبب بأم البنين ، وهو راض عن الأمويين ومشايع لدولتهم . وإلا فما باله لم يشبب فيما نعلم بأحد

(١) حديث الأربعاء : ١ : ٣١٩ .

(٢) تاريخ الشعر السياسى : ١٨

من نساء الزبيريين أو الهاشميين مثلا ؟ ولكن هذا لا يعني حتما أن يكون تشبيبه بأم البنين تشبيب هجاء لا تشبيب غرام، فقد يعلق بأم البنين ويعلق بسواها من نساء الزبيريين والهاشميين ، لكن بغضه الأمويين حينئذ لا يمنعه أن يجهر بحب أم البنين ، فيحوله من عواطف مكبوتة وأحاديث نفس خفية إلى غزل عذب رقيق ، يتداوله الناس بالرواية والتعليق ، وحبه الزبيريين والهاشميين يمنعه أن يبوح بحب نسائهم ، فيظل سراً مكتوما لا يعلم به أحد. فتكون الخصومة إذا مجرد رخصة للتحلل والتفريج ، وتكون المودة مجرد صمام للكبت والكتمان . أما الباعث على التعلق فالحب والإعجاب على الحالين .

وصحيح أن ابن قيس آذى الأمويين ، وأسخطهم عليه حين شبب بأم البنين ، ولكنا نستبعد أنه قصد إلى ذلك وتعمده ، ونعتقد أنه لو أراده لأخذهم بصراحة كما أخذهم بالتهديد والوعيد في مطولته الهمزية التي مدح بها مصعب بن الزبير ، ولتناول مع أم البنين غيرها من سيدات البيت الأموي ، ليكون المجال أفسح مدى ، وأكثر تشعبا ، ولتحدث عنهن أحاديث التصريح والمجاهرة لا أحاديث الاحتيال والمواربة ، فذلك أوجع للنفس ، وآذى للكرامة والعرض . أما هذا العبث الرقيق لا إثم فيه ولا فحش فليس هناك .

ولا محل لاعتبارات التقية والحذر فى هذا المقام ، فقد عالن ابن قيس خصومه أنه مزور عنهم ، وكاره لهم فى غير لبس ولا احتياط ، إذ يقول :

أنا عنكم بنى أمية مزورٌ م وأنتم فى نفسىَ الأعداء

ورأينا عبد الملك بن مروان يقدم ابن قيس إلى أهل الشام بعد أن عفا عنه ، ويذكر لهم ذنبه إليه وإساءته إلى ملكه فيقول : « يأهل الشام . أتعرفون هذا ؟ قالوا : لا ، فقال : هذا عبيد الله ابن قيس الرقيات الذى يقول :

كيف نومى على الفراش ولما
تشمل الشامَ غارة شعواء
تذهل الشيخ عن بنيه وتبدى
عن خدام العقيلة العذراء »

وهى كما ترى شكوى العدو من عدوه ، يحقد عليه ، ويتهدده بتأليب الجموع وشن الغارة الشعواء ، وليست هى بشكوى المغاضب لشاعر عابث ، يقع فى عرضه ، ويتقول عليه الأقاويل .

فالرأى عندى أن غزل بن قيس بأم البنين كان غزلا من الغزل وأن أم البنين كانت فتاة جميلة من فتيات بيت الخلافة ، رآها ابن قيس أو سمع بها ، فتبعتها نفسه كما تبعت غيرها ، وشبب بها كما شبب بها سواه ولا مزيد . وما عدا ذلك فشىء لم يرده ابن قيس ولا قصد إليه .

المدح السياسى :

وإنما نسبنا المدح وحده إلى السياسة ، مع أن لها فى سائر أغراض الشاعر توجيها وعملا ؛ لأن المدح هو الغرض الذى يوشك أن تكون السياسة سببه الوحيد . ولا بد أن نعرض ها هنا رأى الشاعر السياسى الذى دان له ، وثبت عليه سنين طوالا . فقد كان ذا رأى فى السياسة فريد ، لا نعرف له نظير ابين آراء شعرائها الأولين ؛ فكانوا إما شعراء أحزاب يتعصبون لها ، وينشرون دعوتها ويجاهدون خصومها ، وإما شعراء جمهورية ينكرون الحزبية والتحزب ، ويدعون إلى المساواة والشورى فى أمور المسلمين.

أما هو فيوشك أن يكون وسطا بين هؤلاء وهؤلاء ، فليس يتعصب لحزب على حزب ، ولكن يتعصب لقريش على سائر القبائل بل على سائر الناس من كل جنس ؛ فهو يراها أحق بالخلافة وأهلها ؛ لأن لها من المفاخر الكثيرة ، والمآثر المتعالمة ما ليس لسواها : جارها آمن ، وبلدها محجوج ، وفيها سدانة البيت ، وإليها ولاية أمر الحجيج . وهى الصفوة المختارة لحمل رسالة الله ودعوة الناس إليها ومجاهدتهم فيها . فمنها الرسول الكريم الذى أرسله الله للناس كافة ، ومنها السابقون الأولون من الصديقين والخلفاء الراشدين ، الذى باعوا نفوسهم لله ، وأبلوا فى نصرته أحسن البلاء .

لذلك فهو كاسف محزون ، يمضه تصدع وحدتها وتفرق كلمتها ،

ويود مخلصا لو استأنفت أمرها ، وعادت إلى سابق عهدها من المودة والتآلف والوفاق . هذا هو رأيه السياسى فى أصله وحقيقته: لا حزبية ولا جمهورية ، ولكن قرشية متآلفة مسودة . وقد ظل حياته مخلصاً له ، لا يفرط فيه ، ولا يغفل عن الجهر به كلما عنت مناسبة . ذكره فى قصيدة الرحلة إلى فلسطين حيث يقول :

هزئت أن رأت بىَ الشيب عرسى
لا تلومى ذؤابتى أن تشيبا
إن يَشِبْ مفرقى فإن قريشا
جعلت بينها الحروب حروبا

وذكره فى قصيدته الهمزية التى مدح بها مصعب بن الزبير حيث يقول :

أيها المشتهى فناء قريش
بِيَد الله عمرها والفناءَ
إن تُودِّع من البلاد قريش
لا يكن بعدهم لِحَىّ بقاء
لو تُقفّى وتترك الناس كانوا
غَنَمَ الذئب غاب عنها الرِّعاء
هل ترى من مُخلَّد غير أن اللـ
ـه يبقى وتذهب الأشياء؟

يأمل الناس فى غد رَغَبَ الدهـ
ـر ألا فى غـــد يكون القضاء
لم نزل آمنين يحســـدنا النـا
س ويجرى لنـا بذاك الثراء
فرضينــــا فَمُت بدائك غما
لا تُميتينّ غـــيرَكَ الأدواء
نحن منا النبى الامى والصد
يق منـــا التقى والخلفـــاء
وقتيل الأحزاب حمزة منـا
أســـد الله والسناء ســـناء
وعَلىّ وجعفر ذو الجنـاحـ
ـين هناك الوصى والشـــهداء
والزبير الذى أجاب رسول الله
ـه فى الـكرب والبـــلاء بلاء
والذى نَغّص ابنَ دومة ما تو
حى الشياطين والسيوف ظماء (١)

(١) ابن دومة هو المختار الثقفى ، والذى نغصه مصعب بن الزبير . وكان المختـار يزعم أنه يلهم ضربا من السجع لأمور تسكون ، ثم يحتال فيوقعه ، ويقول للناس : هذا من عند الله .

وذكره فى قصيدة يمدح بها عبد الملك بن مروان إذ يقول :

يا حبــــذا يثربٌ ولذتهـــــا
من قبل أن يهلكوا ويحتربوا
وقبـــــل أن يخرج الذين لهم
فيها السنـــــاء العظيم والحسب .

إلا أن حدثين مثيرين وقعا لعهد يزيد بن معاوية، فأحزنا الشاعر وأثارا سخطه على بنى أمية ،واضطراه اضطراراً أن يتعصب عليهم ويؤيد عدوهم : ذانك هما مقتلتا أصحاب الحسين وأصحاب الحرة ، فكلتاهما قد أرثت العداوة والبغضاء ، وأحبطت دعوته وكل دعوة من قبيلها إلى الألفة والوئام . ولم تسلم مع ذلك مقتلة الحسين وأصحابه من أعمال لا تصدر إلا عن الغرور والسفه والقسوة الغشوم والتشفى الحاقد الذليل . وكان ما أصاب أهله يوم حرة واقم ذريعاً قاسيا ؛ فقد قتل منهم فريق ، وشرد فريق من الأيامى والأيتام .

وما كان لرجل له ما لابن قيس من الشاعرية والمنزلة فى قومه أن يمر به هذان الحادثان أو أحدهما فلا يغيره ، ولا يثير نخوته وحماسته . فقد كان شاعر قريش ، أو فى الأقل قلبا من قلوبها الخافقة ، ولسانا من ألسنتها المعبرة الناطقة . وكان عميد قومه ، وصاحب الشأن الأول فيهم ، فليس يسعه إذا إلا أن يثور لهؤلاء

وهؤلاء ، وأن يحاول الثأر لهم جميعا عن المفجوعين فيهم من النساء والأطفال ، استجابة لداعي الحمية والرحم ، وأداء لضريبة التقدمة والنبوغ .

وها هي ذي دولة ابن الزبير تنمو وتشتد ، والناس يسارعون إليها ، ويدخلون في دعوتها . فليس أحزم للرأي ، ولا أنجح للسعي من الانضمام إليها ، والأخذ بناصرها في هدم الأموية وتعفية آثارها . ذلك فيما يبدو لنا سر إقباله على الزبيرية ومغاضبته للأموية . ونحن واجدون من شعره حجة له وشاهدا . قال من قصيدة في رثاء قتلى الحرة :

كيف الرقاد وكلما هجعت
عيني ألمّ خيال إخوتيه
تبكي لهم أسماء معولة
وتقول ليلى : وارَزِيّتيه
والله أبرح في مقدمة
أهدي الجيوش عليّ شِكّتيه[1]
حتى أفجعهم باخوتهم
وأسوق نسوتهم بنسويته

وقال من مطولته في مدح مصعب :

---

(١) الشكة : السلاح .

أنا عنكم بنى أمية مزورّ
وأنتم فى نفسىَ الأعداء
إن قتلى بالطّفّ قد أوجعتنى
كان منكم لئن قُتلتم شفاء (١)

ولما أن غلبت الأموية وخلا لها وجه الحكم ، ولم يبق له ملجأ إلا إليها — اضطر أن يروض نفسه على الرضا بالواقع والاستسلام لحكمه ؛ فاستشفع إلى عبد الملك ، وأقبل يمدحه ويمدح بيته ، ويدافع عن حقهم فى الملك ، ويرمى أعداءهم بالبغى ويتهمهم بالكذب والتعلق بالباطل :

أحفظهم قومهم بباطلهم حتى إذا حاربوهم حرِبوا
تجردوا يضربون باطلهم بالحق حتى تبين الكذب

وإذا كانت الأحداث قد اضطرت ابن قيس أن يستغفر الأمويين ويمدحهم فما أحسب أنها كانت تضطره إلى تحقير خصومهم وإنكار المطالبة بالخلافة عليهم ؛ فما أعرف أن الأمويين رغبوا إليه فى ذلك أو أرادوه عليه ، ولا أن مقتضيات الحال كانت توجبه ضربة لازب . ومهما يكن الواقع فما أظن أنه كان يعييه أن يسترضيهم ويكسب مودتهم بغير التنكر لرأيه والإزراء بأصدقائه .

(١) الطف : أرض من ضاحية الكوفة فى طريق البرية . وبها كان مقتل الحسين

صحيح أن امتداح ابن قيس للأمويين لا يناقض مذهبه السياسى فى أصله وجوهره ، لقيامه كما سبق على التعصب لقريش واعتبارها أصلح الناس للخلافة وأحقهم بها ، لكن الذى يناقضه حقا أن يسفه خصوم الأمويين ، ويرميهم بالكذب واتباع الباطل حين يخرجون على الأمويين ، لأنهم يرونهم مغتصبين للخلافة ، أو منحرفين عن النهج فى السياسة وتدبير الأمر . فمعنى ذلك أن الأمويين أصبحوا وحدهم أصحاب الحق فى الخلافة ، وأن الشاعر قد صار من القرشية إلى الأموية ، أو بتعبير آخر قد خرج من التعصب للقبيلة ومحايدة الأحزاب إلى التعصب للأمويين على بقية الأحزاب.

نعم إن ابن قيس لم يعين هؤلاء الذين وسمهم بالكذب واتباع الباطل ، وإذا ليس هناك دلالة صريحة على أنه يعنى بهم الزبيريين لكن إغفال التسمية والاجتزاء منها بالإشارة والوصف مما يوسع مدى الدلالة ، ويساعد الفهم أن يدخل فيها كل ما يمكن أن تنطبق عليه . والزبيريون بلا مراء هم أول من يخطر بالبال فى هذا المقام ، وخاصة إذا لحظنا أن صلة ابن قيس بعبد الله بن جعفر بن أبى طالب كانت على خير ما تكون من الإجلال والاعتراف بالفضل والإخلاص فى الود ، وأنه يبعد لذلك جداً أن يمس الهاشميين عامة بما يمكن أن يسيئهم من قريب أو بعيد .

وقد يقال : إن ابن قيس كان قد تحول إلى مثل هذا الرأى يوم

انضم إلى الزبيريين ، ينصرهم على الأمويين . والواقع أنه كان هناك غيره هنا ؛ فهناك كان زعيما حميا ، ينتصف لمظلومين بغى عليهم السلطان ، وأعمل فيهم القتل والتشريد ، ولكنه لا يستطيع أن يدرك بغيته وحده ، بل مع آخرين من أولى البأس والغناء ، فانضم إلى الزبيريين ، تجمعه إليهم وحدة الوسيلة ، وتفرق بينه وبينهم الغاية والإحساس . فقد كان موتوراً يطلب الترة ، وكانوا طامحين يطلبون السلطان ، وسبيله وسبيلهم القضاء على الأموية ، فأيما جهد يبذل فى ذلك يكون بمثابة خطوة تدنى كلا من أمله المنشود . ولأمر ما رأينا ابن قيس فى مدح الزبيريين لا يذم الأمويين ، ولا يرميهم بما يرمى به الزبيريين حين يمتدح الأمويين ، ولكن يهددهم ، ويعالنهم بالعداوة والبغضاء .

تلك حاله هناك ، أما هنا فخائف متوجس ، يحذر الظنة والحرمان ، ويعتصم لاتقائهما بمجافاة أصدقائه بالأمس ومخالفة رأيه السياسى الأصيل .

ويذهب الأستاذ الدكتور طه حسين إلى أن ابن قيس إنما تغير على الأمويين ، وكره مكانهم « لأنهم اعتزوا على القرشية خاصة والمضرية عامة بالقبائل اليمانية (١) » .

ونأخذ على هذا الرأى أنه مرسل ، لا حجة له ولا سند ،

(١) حديث الأربعاء ١ : ٣٢٤ .

وأنه لا يتفق مع ثورة ابن قيس على الأمويين لا فى فكرتها وجوهرها، ولا فى حدتها وعنفها . فأهم ما كان يعنيه من سياسة الدولة أن تتفق كلمة قريش ، وأن تكون لها الخلافة من دون الناس . أما ما عدا ذلك فنوافل وفضول لا تقلق باله ، ولا تهيج حماسته . وإذا كان الخير الذى يرتجيه الأمويون للخلافة من الاعتزاز باليمانية والتعويل عليها غير واقع ولا بعرض وقوع فى رأى ابن قيس ، فإن الخطر الذى يخشاه عليها من ذلك غير واقع ولا بعرض وقوع أيضا فى رأى الأمويين. وهو حقيق أن يعلم أنه ليس أبصر منهم بدخائل السياسة فى دولتهم ، ولا أعرف منهم بصالح الخلافة ، ولا أحرص منهم على أن تظل فى أيديهم تراثا باقيا على الأيام . والرأى من كلا الجانبين يقوم على الظن والتقدير .

وابن قيس بعد هذا ليس صاحب الشأن الأول فى الخلافة ولا هو وحده المسئول عن مصيرها ، المأخوذ بما قد ينزل بها من أخطار ، فإنما هو منها ككل رجل آخر من جمهرة الدعاة وأصحاب الكفايات . ولست أدرى مع هذه الاعتبارات وفى هذا الوضع كيف يمكن أن يقال إن كل ما أتى ابن قيس من عمل ، وكل ما قال من قول لمناهضة الأموية وتأييد أعدائها — إنما كان لمجرد الغضب والتعصب للمضرية أن ليس لها من الشأن والتقدمة فى الدولة مثل ما لليمانية ؟ وكيف يمكن أن تثيره الحماسة لذلك

كل هذه الثورة ، فنسمعه يعجب لنفسه وينكر عليها أن يقر لها قرار ، أو يطيب لها نوم قبل أن يسوق الجيوش إلى بنى أمية ، ويشن عليهم غارات شعواء شاملة ، تذهل الشيخ عن بنيه ، والعقيلة العذراء عن نفسها ، فتنسى تصونها ، وتكشف عن حلاها جزعا وهلعا ، ونراه يخرج لقتالهم مع مصعب ، ثم لا يقبل أن يفارقه حتى يعرف مصيره ، ويقضى الله فيه قضاءه ، وإنه ليعلم علما ليس بالظن أن الأمر قد انتشر عليه ، وأن الناس قد أسلموه وتخلوا عن نصرته إلى غير رجعة .

ولا ريب أن ابن قيس حقيق أن يألم لانحراف الأموية عن المضرية ، وأن يأخذها بهذا الانحراف ، عتابا ، أو لوما ، أو هجاء ، أو ما يشبه ذلك . ولكنه ليس حقيقيا أن يطيش له ، وأن يركب الهول فى سبيله ، وذلك إن فعل غير سائغ ولا مفهوم ، ما بقيت الأمور تقاس بمقاييسها الصحيحة ، ويكون للحكمة والاعتدال فى تصريفها حساب .

ويقول الأستاذ الدكتور طه حسين عن مذهبه السياسى فيما يقول : « فأنت ترى أنه اتصل بأحزاب ثلاثة مختلفة : اتصل بحزب الزبيرين وفيهم قال أجود مدحه ، واتصل بالأمويين وفيهم قال الكثير الجيد ، واتصل بالها شميين وفيهم أحسن وأجاد [1] :

---

(١) حديث الأربعاء : ١ : ٣٢٤

فالأستاذ الدكتور يذهب إلى أن اتصال الشاعر بعبد الله بن جعفر ومدحه إياه كان عن تحزب وسياسة ، كاتصـــاله بالزبيرين والأمويين ومدحه إياهم . ونرى أنه كان اتصالا من نوع آخر ، كان يمكن أن يكون بينه وبين أى رجل آخر يصنع له مثل ماصنع عبد الله : فهو اتصال الشكر على الصنيعة والاعتراف بالجميل ، وليس اتصال الحزبية ومقاصد السياسة ، فلم يكن عبد الله يومئذ على الأقل خصما للأمويين ولا منافسا لهم فى السلطان ، بل كان حبيبا إليهم وأثيرا عندهم ، ولهذا لجأ الشاعر إليه يعوذ به ، ويسأله الشفاعة فيه. وليس فى مدحه إياه إشارة خفية أو جلية إلى السياسة أو محاولة الخلافة والطمع فيها .

وبعد ، فلعل أعم مايبدو فى مدح ابن قيس من خصائص أنه لايتخذ من الممدوح فى أكثر الأحيان موضوعا قائما بنفسه ، يقصر المدح كله أو أكثره عليه ، ولـكن يتخذه فرعا لأصل اشتق منه ونما على مثاله ، فليس يستقيم الحديث عنه إلا معه ، وليس يصح أن يكون له منه إلا مايكون لواحد فى جمع . وكل ما يختص به دونهم من مزية أنه يزجى اليه نصيبه وحده ، ويزجى إليهم نصيبهم مجتمعين . وتلك بقية من نظام القبيلة فى الجاهلية ، وأثر من علاقتها بأبنائها وعلاقة أبنائها بها . فقد كانوا منها كما تـكون اللبنات فى البنية الشاخصة أو الأعضاء فى الجسم الحى، يظاهر بعضها بعضا ، ويعمل

كل منها لخير سواه فى تكافل وانقياد ، تضعف معهما ظواهر التحرر واستقلال الشخصية . ويصور دريد بن الصمة هذا المعنى أجمل تصوير وأوضحه حيث يقول :

أمرتهمُ أمرى بمنعرَج اللوى
فلم يستبينوا الرشد إلا ضحا الغد
فلما عصونى كنت منهم وقد أرى
غوايتهم وأننى غير مهتد
وهل أنا إلا من غـَزِية إن غوت
غويت وإن ترشُد غزية أرشد؟

وربما تناول الممدوح أيضاً باعتباره أصلا منجبا ، له فروع تتأثره وتنمو على شبه منه : زكاء وكرما . قال يمدح عبد الملك بن مروان :

أحلك الله والخليفةَ بالـ
ـغوطة دارا بها بنو الحكم
المانعو الجار أن يضام فما
جار دعا فيهمُ بمهتضَم
والوارثو منبر الخلافة والمـ
ـوفون عند العهود بالذمم

والجابرو كسر من أرادوا وما الـ
ـكسر الذى أوهنـــوا بملتئم
فهـــم إذا جَـلَّلتْ مُدَجِّية
نجوم ليـــل تنير فى الظـلم (١)
الكاشـفو غمـــرة إذا نزلت
بالناس إحدى الجوائح العُـظم (٢)
ليسوا يمنون فضلهم ولهم
فضـــل علينا بأحسن النعم
تحبهم عُـوَّذ النســـاء إذا
أبدى العذارى مواضع الخَـدَم (٣)
وأنـكر الكلب أهـــله وبدت
حرب عوان تشب بالضَّـرَم
منهـم إمام الهدى له نعم
عنـــدى وأيد تصوب بالديم
خليفـــة يقتـــدى بسنته
فى إرث مجـــد الثراء والـكرم .

وقال يمدح عبد العزيز بن مروان :

أثن على الطيب ابن ليـــلى إذا
أثنيت فى دينـــه وفى حَسَبه

---

(١) جللت : شملت (٢) العظم : جمع العظمى

(٣) عوذ : لاجئات جمع عائذة . الخدم : الخلاخيل .

من يصدق الوعد والقتال ويخـ
شى الله فى حلمه وفى غضبه
ومن تفيض الندى يداه ومن
ينتهب الحمد عند منتهبه
أمك بيضاء من قضاعة فى الـ
بيت الذى يستظل فى طنبه (١)
وأنت فى الجوهر المهذب من
عبد مناف يداك فى سببه
يخلفك البيض من بنيك كما
يخلف عودُ النضار فى شعبه
ليسوا من الخروع الضعيف ولا
أشباه عيدانه ولا غرَبه (٢).

ويكثر ابن قيس فى مدحه من ذكر أمهات الممدوحين ، وربما صرح بأسمائهن كما سبق فى مدح عبد العزيز بن مروان . وقد لحظ عبد الملك منه ذلك ، وأنكره عليه . ففى الموشح أن عبد الملك بن مروان قال لعبد العزيز بن مروان : ما بال ابن قيس الرقيات يذكرك بأمك ، كأنه ليس لك بأبيك شرف ؟ وكان ابن قيس الرقيات قد قال فى عبد العزيز :

(١) الطنب : حبل طويل ، يشد به سرادق البيت . (٢) غربه : شجره .

جاءت به حـــرة مهـــذبة
كلبية كان بيتهـا دِعما[١]

مِـــلْأ صبغيات والفوارع لم
يحملن فوق العواتق الحُزَما[٢]

فلما دخل ابن قيس الرقيات على عبد العزيز قال له ذلك ؛ فقال : إنما حسدك ، والله لأقولن قصيدة أذكر فيها أمه وبطنها ، ثم ليرضين . وسأله أن يحضر من الغـــد ، فلمـا اجتمعا عند عبد الملك أنشده :

أنت ابن منبطح البطـــا
ح كُدُيِّهـا فكَـدائهـا

ولِبطن عائشـــة التى
فرعت أروم نسـائهـا

ولدت أغـــر مهـــذبا
كالشمس عنـــد ضيائها

فى ليـــلة لا عيب فى
سَحَرِيِّهـا وعشـــائها[٣]

---

(١) دعما : دعائم .

(٢) ملأ صبغيات : من الأصبغيات من بنى كلب . الفوارع : الطويلات الحسان الهيئة .

(٣) السحرى : السحر . والأبيات كما يرويها المرزبانى تخالف رواية الديوان ببعض الحذف وكثير من التغيير فى المفردات.

فلما خرجا من عند عبد الملك قال له : كيف رأيت تقبله هذا الشعر ؟ [١]

وأعتقد أن ابن قيس لم يرد الغض من عبد العزيز بن مروان حتى من وجهة نظر عبد الملك أخيه ، لأنه لم يذكر عبد العزيز بأمه وحدها ، ولكن بأبيه وقومه ، ثم بأمه وقومها ، تمجيداً لمحتده من جانبي الأبوة والخئولة جميعاً . وهذا ما يقوله له قبل البيتين الآنفي الذكر :

أغر أشياخه العصاة بنو
أميــة المرغمون من رغما
أشياخ صدق نَمَوا بمعتلج الـ
ـبطحاء كانوا لقومهم عِصَما
نالوا مواريث من جدودهمُ
فورّثوها مروان والحكما
أهل الحَمالات والدَّسيعة والـ
ـمفنون عند الشدائد البَهَما
من البهاليل من أمية يز
داد إذا ما مدحته كرماً
لا يحسب المدحة الخداع ولا
يُدرَك تياره إذا التَطما

---

(١) الموشح للمرزباني : ١٨٦

جاءت به حرة . . .

ثم هو نفسه قد ذكر أمه فى الفخر حيث يقول :

أمى لقيس فى الذرا   وأبى لعاتكة المهَيره [١]

وليس يغيب علم ذلك طبعاً عن مثل عبدالملك فى أدبه وفهمه ، ولكن يظهر أنه لم يكن عظيم الثقة بإخلاص ابن قيس وصدق توبته إليه . ولا يبعد أن يكون مرد الأمر كما يقول ابن قيس إلى الحسد وحب النفس ، فليس له فى عبد الملك قصيدة تبلغ من القوة والروعة ووفاء الإحاطة وحسن الافتنان ما بلغت ميميته فى عبد العزيز بن مروان . وهى القصيدة التى أنكر عبد الملك أن تذكر فيها أم أخيه عبد العزيز .

الرثاء :

كان رثاء ابن قيس سياسيا ، تتصل كثرته بالسياسة من قريب. وأحر مراثيه عاطفة ، وأشدها لوعة وجزعا مراثيه فى أصحاب الحرة من أهله ، وفى مصعب بن الزبير . وهذا طبيعى؛ فأولئك من عشيرته الأقربين ، وقد فتك بهم السلطان ، وهو رجل بر عطوف فيه لأهله حب ومرحمة . ومصعب كان من أحب الأصدقاء إليه ،

(١) المهيرة : الحرة الغالية المهر .

وأكثرهم فضلا عليه ومنة ، وأمثلهم فى رأيه طريقا ، وأوفرهم شجاعة وحزما .

وهو فى رثاء قتلى الحرة جازع متهالك، نال منه المصاب، وعز عليه العزاء فيه ، فلم يتكلفه ولم يلتمس سبيلا إليه ؛ فركبته الهموم واستبدت به ، وجعلت منه رجلا زاهدا ، مؤرقا ، متشائما ، كسير القلب ، شارد اللب ، لقس الحس ، لا يستطيب اللذائذ ولا يرى أن فيه بقية من صلاح للصبوة والإصابة من اللهو . يستطيب البكاء ؛ فيبكى ، ويستبكى . ويرى النساء باكيات متسلبات ، يندبن القتلى ، ويعظمن المرزئة فيهم ؛ فيستزيدهن ، ويقبل عليهن يذكر لهن أسماء القتلى ، ويرغب إليهن أن يندبنهم واحدا واحدا ؛ فكل بذاك حقيق ، والمصاب فيه عظيم . وربما انكشف عنه الجزع ، وزايله اليأس، فإذا هو حاقد مهتاج موتور ، يتهدد واتريه بالانتقام جزاء وفاقا . قال:

ذهب الصِّبا وتركت غَيَّتيه
ورأى الغوانى شيب لِمَّتيه (١)
وهجرننى وهجرتهن وقد
غَنِيت كرائمها يطفن بيه (٢)

(١) اللمة : الشعر الذى يجاوز شحمة الأذن
(٢) غنيت : أقامت أو اكتفت

إذ لمتى سـوداء ليس بهـا
وَضَح ولم أُفجَع بإخوتيه [١]
الحـاملـين لواء قومهـمُ
والذائدين وراء عورتيـه
إن الحوادث بالمدينـة قد
أوجعننى وقرعن مَرْوَتيه [٢]
وَجَبَبْنَنى جَبَّ السَّنـام فلم
يتركن ريشا فى مناكبيـه
وأتى كتاب من يزيد وقد
شُدَّ الحزام بسرج بغلتيـه
ينعَى بنى عَبْـد وإخوتهم
حل الهـلاك على أقاربيه
ونعى أسـامة لى وإخـوته
فظللـت مُسْتكا مسامعيـه [٣]
كالشارب النشوان قَطَّره
سَمَـل الزِّقاق تفيض عبرتيه [٤]

---

(١) وضح : شيب (٢) المروة : الحجر الصلب ، وقرعت الحوادث مروته : أنزلت به البلاء (٣) مستكا : استكت المسامع : صمت

(٤) قطره : صرعه . سمل جمع سملة وهى فى الأصل بقية الماء فى الحوض

سَدِماً يعزينى الصحيـــح وقد
مَرَّ المنون على كريمتيـــه (١)
كيف الرقاد وكلمـــا هجعت
عينى ألمّ خيـال إخوتـــيه ؟
تبـــكى لهم أسماء معـــولة
وتقول ليـــلى : وارَزِيّتيـه
واِ‌ته أبرح فى مقـــدمة
أهدى الخيـــول على شِكَّتيه
حـــتى أجمعهم بإخـــوتهم
وأســـوق نسوتهم بنسوتيه

وقال :

وأرمـــلة يعـــتريها النحيب
إذا نامت الأعـــين النـاعمه
تُبَـــكِّى رجال بنى عمهـــا
وإخوتهـا وحـــدها قائمـه
فيـاليـــل بكِّى أبا عاصم
بكاء مواسيـــة دائمـــه
وياليـــل بَكِّى أبا مالك
وياليـــل بَكِّى أبا فاطمـــه

(١) سدما: سدم ، حزن فى غيظ . كريمتيه : الكريمة ذو الكرم والحسب . ويريد بكريمته من قتل من أهله .

ألدّ إذا الخصم لم يستقم
شديد القوى يدفع الضائمه
وبكّ أسامة للنائبات
وللدّين والخطة الحازمه
وبكى حسينا حسين الطعان
إذا الخيل لم تنقلب سالمه
رجال النُّوَيْعم لم ينكُلوا
جلادا عن الفئة الظالمه (١)

أما فى رثاء مصعب فقد أغفل الحديث عن صداقته له ، وفضله عليه ، وأثره فى نفسه ، وقصره على الجانب العام منه لا يعدوه ، كأنه فى رأيه الجانب الوحيد الذى لا يصح لمن يرثيه أن يتعرض لغيره ، ولا أن ينظر إليه إلا منه ، ولا أن يقدر شأنه إلا به ؛ لأن المصيبة فيه أجل من أن تكون مصيبة الصداقة والأصدقاء ، وأجدر أن تكون قبل هذا مصيبة الدولة الناشئة ، التى كان إليه وحده حياطة أمنها وإقامة بنيانها ، وتأثيل مجدها ، بما كان يلازمه أبدا من التوفيق والظفر فى ميادين السياسة والحروب . قال :

أتاك بياسر النبأ الجليل
فليلك إذ أتاك به طويل

---

(١) النويعم : هو ربيعة بن أهيب بن ضباب جده الثالث

أتاك بأن خير الناس إلا
أميرَ المؤمنين بها قتيل
فقلت لمن يخبرنى حزينا :
أتنعى مصعبا ؟ غالتك غول
فإن يهلك فجدكمُ شقى
وعيشكمُ وأمنكمُ قليل
وإن يَعْمَر فإنكمُ بخير
عليكم من نوافله فضول
أغر تفرَّج الغمرات عنه
كأن جبينه سيف صقيل
يُهاب صريف نابيه ويُخشى
إذا عدَلت شقاشقها الفحول [(١)]

إذا نزلت به حرب ضروس
يُهاب الرِّزّ منه والصليل [(٢)]
مَرَى بالسيف دِرتها فدرت
فأمست وهى عارفة ذلول [(٣)]

---

(١) الشقاشق جمع شقشقة وهى مايخرجه البعير من فيه كالرئة إذا هاج ، وعدلت شقاشقها : أقامتها ونفخت فيها.

(٢) الرز : الصوت يسمع من بعيد

(٣) مرى الناقة : مسح ضرعها لتدر . عارفة : منقادة .

أليس بصاحب الكذاب لما
أصاب الناس شؤبوب وبيل [١]

وكاد نساؤهم يلقَين غيا
تُركن وفرّ عنهن البعول

وأرعنَ قد جررت إلى عدو
يزينه التأوه والصهيل [٢]

كأن زُهاءه لله حُجّ
توافىَ منهمُ بمنى حلول [٣]

تضل العائذ البلقاء فيهم
ويخطىء رَحْلَ صاحبه الزميل [٤]

كأن مجَفَّفات الخيل فيه
إذا مرت برازيقا فُيول

سموتَ بهم إلى حيّ بعيد
لتَفجَعَهم وأنت لها فَعول

وبينا أنت تُوجف مستهلا
بساحة أرضهم لمع الدليل [٥]

---

(١) الكذاب : المختار الثقفي على ما يظهر . الشؤبوب : الدفعة من المطر
(٢) أرعن : جيش له فضول
(٣) زهاءه : زهاء الشيء : شخصه . وهو أيضاً العدد الكثير . حج : حجاج .
(٤) العائذ : الحديثة النتاج من كل أنثى. البلقاء : مافى لونها سواد وبياض الرحل ما يستصحب من الأثاث فى السفر ، وما يحمل على ظهر البعير كالسرج أيضا .
(٥) أوجف الخيل : حملها على الاسراع .

وآنَسَ غَيْبَ رايةِ سَواما
ترى قِطَعَ السحاب بها يزول (١)

وأولاد الصريح مُسَوَّمات
تَبارى مثل ما هَدَجَ الوعول (٢)

أَبَسَّ بها الفوارس فاستطارت
تُبارى المرْدَ بالجَذْمِ الكهول (٣)

وربما أخذ فى رثائه مأخذ الدراسة والبحث ، فيذكر أسباب هزيمتـــه ، ويصف غدر أصحابه به ، ثم لا يكاد ينتهى به التتبع والاستقصاء إلى هذه الغاية المفجعة حتى يتملكه الغيظ ، ويخرجه السخط من هدوئه وتأمله ؛ فينقلب ثائرا محنقا ، يصيح بما كان لا بد واقعا بأعدائه من الويل والنكال ، لو أن الأمور جرت من حوله على ماتوجبه النخوة والوفاء . قال :

إن الرزيه يوم مَسْـ — ـكِنَ والمصيبة والفجيعه (٤)
بابن الحـــوارى الذى — لم يَعْدُه أهل الوقيعه
غـدرت به مضر العرا — ق وأمكنت منه ربيعه

---

(١) السوام : المواشى . القطع : هو فى الأصل ظلمة آخر الليل ؛ والقطعة منه . والمراد أن السحاب الأدكن يتوارى خلف الراية .

(٢) الصريح : خالص كل شىء ، والمراد بأولاد الصريح : الخيل الكرام الخالصة النسب . مسومات : معلمات . هدج : مشى مشية الشيخ .

(٣) أبس : أرسل وفرق . الجذم : القطع السريع .

(٤) مسكن : الموضع الذى كانت به الوقعة بين عبد الملك ومصعب .

فأصبت وترك ياربيـــ ـــع وكنت سامعة مطيعه
يالهـــف لو كانت له بالطـف يوم الطف شيعه
أو لم يخونوا عهـــده أهل العراق بنو اللكيعه
لوجدتمـــوه حين يغـ ـضب لا يُفرَّج بالمُضيعه

الفخر

أكثر فخر ابن قيس كان بأهله وقومه . وقد فخر بنفسه أيضاً ، ولكن فى قصد واعتدال ، على صورة تجعله كالوصف البرىء أو الحديث المجرد ، وفى نطاق معاملته للناس وعلاقته بالأصحاب . وهو فى هذا وذاك متأثر بنظام القبيلة ، حيث تفنى شخصية الفرد فى شخصيتها حتى لا يكاد يظهر لها كيان خاص أو خصائص متميزة .

فالروح الذى كان يسيطر عليه فى الفخر هو الذى كان يسيطر عليه فى المدح ، فبين الفخر والمدح كما لا يخفى نسب موصول . قال فى الفخر بأهله :

نحن الفوارس من قريـ ـش يوم جِـــد لقائها
وأعـــدها رِفدا إذا رَفَدت برَفد إنائها [1]
وأعمها بِسجالها وأضنها بدمائها [2]

(١) أعدها : أكثرها . الرفد بالكسر : العطاء ، وبالفتح القدح الضخم
(٢) السجال جمع سجل وهو العطاء والدلو العظيمة فيها ماء

وأَحشـها للنـار ليـ ـلة صِرّها وشتائها [١]
حين القُتارُ إلى الفتـا ة أحبُّ من أحمائها [٢]

وقال فى الفخر بنفسه :

إنى امرؤ لا يَطَّبى ودى الخليل الكاذب [٣]
حَسَن الخَليقة والمود ة ما استقـام الصاحب
هنأته سلمى وأعـ ـلم بعد كيف أحارب
عنـدى لجام للرجا ل ومِخلَب وكلالب
مَن ألقه فى رأسه يُلـحِـخْ عليه العاتب
ويَلِنْ ويَنْسَق لى كما ساق المَطِىَّ الراكب
نحن الصريح إذا قريـ ش قام منها الناسب
من سِرِّها وأرومها إذ للأروم مراتب

الوصف:

كان ابن قيس مقلا فى الوصف كما كان مقلا فى الفخر ، ولئن كان فى الفخر محسنا مفتنا لقد كان فى الوصف مقاربا قليل الافتنان. وربما بدا هذا من مثله عجيبا ؛ فقد ساح فى الأرض ، وعاش بين سلائل مختلفة ، ورأى عجبا من ظواهر الطبيعة وآثار الماضين ،

---

(١) حش النار : أوقدها . الصر : شدة البرد
(٢) القتار : ريح القدر والشواء .
(٣) يطبى : يستميل

ورأى من مشاهد الحضارة والعمران ومعالم الغنى والخصب، ومناعم الرفاهية والترف. وتلك ولا شك مادة خيال، وينبوع ثقافة. ولكن هيهات أن تعمل عملها كله، وأن تؤتى ثمرها كاملا، أو على نمط واحد فى كل حين وعند كل إنسان؛ فإنما هى فى ذلك على صلة وثيقة بمعدن الطبع ومبلغ الاتجاه وظروف الحال. وصاحبنا كان عربيا باديا، لم تتهيأ له بعد أسباب الانطلاق من قيود الفطرة البدوية فى النظر والتفكير، وفى التلقى والانفعال. وليس أشبه منه فى ذلك كله بالطفل: تأخذه الظواهر الباهرة، والألوان الزاهية، والتهاويل العجيبة أكثر مما يأخذه روح الفن، وبراعة الصناعة، ودقائق الهندسة، وتنبعث فيه نوازع التملك والانتفاع قبل أن تنبعث دواعى الاستلهام والتخيل.

ولم يكن من هم صاحبنا على كل حال الدراسة والتأمل والاستيحاء؛ لأنه لم يخرج سائحاً متفرجا، ولا باحثاً منقباً، ولكن عابراً متنقلا، أو مقيما لاهى الوعى مشغول البال. وقد فتنته المرأة، واحتجنته لها، وقصرته عليها كما فعلت بسلفه من قبل لأنها كانت ولم يكن سواها من تماثيل الجمال؛ فغلبت على قلوبهم ومواجدهم، ولم تكد تدع لغيرها منهم إلا اليسير. لذلك كله لا نرى فى شعره عن البلاد التى زارها والمشاهد التى رآها هنالك إلا طائفة من الأسماء يسردها سرداً مجرداً، أو مع شىء من البيان قليل، كقوله يخاطب عبد الله بن جعفر:

ذكرتك إذ فاض الفرات بأرضنا
وجاش بأعلى الرَّقتين بحارها[1]

وقال من قصيدة فى الفخر :

أقفرت منهم الفراديس فالغُو
طة ذات القرى وذات الظلال[2]
فضُمَيرٌ فالمـاطرون فحَوْرا
ن قفار بَسابِس الأطلال[3]

ولقد بدا له أن يصف حلوان مصر لعهد عبدالعزيز بن مروان ، فما زاد على أن ذكر أشجار الفاكهة فيها ، وخاصة النخيل ومايتوارد عليه ، أويقيم فيه من حمام وغربان . قال :

سَقْيا لحلوان ذى الكروم وما
صنّف من تينه ومن عنبهْ
نخلٌ مَواقِير بالفناء من الـ
بَرْنِيِّ غُلْب يهتز فى شَرَبه[4]

(١) الرقتان : الرقة والرافقة ، وهما من أعمال الجزيرة ، واقعتان على ضفة الفرات ، وأبنيتهما متصلة ، وبينهما ثلثمائة ذراع . قال ياقوت : ... فأما الآن فان الرقة خربت ، وغلب اسمها على الرافقة ، وصار اسم المدينة الرقة . اهـ .

(٢) الفراديس : موضع قرب دمشق . الغوطة : مدينة دمشق ، أو كورتها .

(٣) ضمير : موضع قرب دمشق . الماطرون : قرية بالشام . حوران : كورة بدمشق . بسابس جمع بسبس وهو القفر الخالى .

(٤) مواقير جمع ميقار وهى المثقلة بحملها . البرنى : نوع من التمر . الشربة : حوض حول النخلة يسع ريها .

أسودُ سكانُه الحمام فما
تنفك غربانه على رطبه

ثم بدا له أن يصف السفن فى النيل، وهى مصعدة إلى حلوان، تحمل أثقالا من نفائس المغرب بعد أن فتح الله بها الفتوح على موسى بن نصير، فما كان نصيب السفن منه سوى نظرة معجلة، ذكرته سحائب الصيف حين تمر فى السماء على هينة واطراد. أما حمولتها من الثياب والجواهر فقد وقف عندها، يقلب النظر، ويفصل الحديث على مقدار ما تهيأ له. فهى وحدها بفضل أشكالها الغريبة، وألوانها الباهرة، ونفاستها البالغة حقيقة أن تثير اهتمامه، وتقيد نظره، وأن تبعث فيه رغبة وروعة وعجبا. وهذه أبياته فيها:

غَدَوا من مَدْرج الكِرْيَوْ
نِ حيث سفينهم حُزُق(١)
كما يغدو نِشاص من
سحاب الصيف منطلق(٢)
فلما أن علون النيـ
ـل والرايات تختفق
رأيت الجوهر الحكميّ
والديباج يأتلق

(١) مدرج: مذهب، مسلك. الكريون: قرية قرب الاسكندرية حزق: جماعات.
(٢) النشاص: السحاب المرتفع، أو المرتفع بعضه فوق بعض

وخَزَّ السُّـوس والإضر
يجَ فصَّل بينه السَّرَق(١)
وخَملَ الأُرجوان على السـ
ـفين كأنه العَلق
سـفائن غير مُقْلَعَة
إلى حلوان تستبق(٢)

وله بعد هذا مشاركة فى الوصف التقليدى ، يجارى فيه مع كثير غيره شعراء الجاهلية وأشباههم من شعراء البادية فى الطريقة والموضوع . ونحن إذ نسمعه فى هذا النوع يصف دوارس المنازل وشواخص الأطلال ، أو يصف ركائب الإبل والخيل - يخيل إلينا أنه واحد منهم ، يعيش معهم ، ويفكر كما يفكرون .

ومن ذلك قوله :

ياسَنَد الظاعنين من أُحُد
حُيِّيتَ من منزل ومن سند(٣)

(١) السوس : يطلق على إقليمين فى الجنوب الغربى من المغرب الأقصى : السوس الأدنى ، والسوس الأقصى . والاضريج : الخز الأحمر ، ويطلق على كساء أصفر . السرق : شقق الحرير الأبيض أو عامة .

(٢) مقلعة : مرفوعة الشراع .

(٣) السند : ما قابل من الجبل وعلا عن السفح .

ما إن بمثواك غيرُ راكدة
سُفع وَهابٍ كالفرخ ملتبِد (١)
والنؤىِ كالحوض خُط دون عوا
دى السيل منه ومضربِ الوتد (٢)
والوحش فيـــه كأنه هَمَل
ترعى بجَوٍّ عوازبَ العُقَد (٣)
أُبْدِلتَ عُفر الظباء والبقرَ ال
عِينَ خلاف العقائل الخُرُد (٤)

وقوله :

كل خَيْفانة مُجَنَّبة الرجـ
ـلين عجلى خفيفة فى الشمال (٥)
مَرَطى الشَّد كالعُقاب تدلّت
بين نيقَين من رءوس الجبال (٦)

---

(١) السفع : السود اللون إلى حمرة . الهابى : التراب .

(٢) النؤى : الحفير حول الخباء أو الخيمة يمنع السيل .

(٣) همل : إبل متروكة ترعى بلا راع . جو : اسم موضع . العقد : الأماكن الكثيرة الشجر والكلأ

(٤) عفر الظباء : بيضها التى ليست شديدة البياض ، أو البيض يعلو بياضها حمرة . الخرد : الأبكار ، أو الحييات يطلن السكوت .

(٥) الخيفانة الجرادة قبل أن يستوى جناحاها ، وتشبه الفرس بها لخفتها . مجنبة الرجلين : محنيتهما فى شدة .

(٦) المرطى : ضرب من العدو . النيق : أرفع مكان فى الجبل .

وهَزِيم أجش يَستَنّ بالدّا
رع يوم النِّهاب والأنفال (١)
جُرشُع يملأ الحزام كأن الـ
جهد يجلو أديمه بصقال (٢)
بُدّلت بالشعير والخفض والقَتّ
ومسح الغلام تحت الجلال (٣)
غارةَ الليل والنهار فما تصـ
ـبح إلا مُحسّة لقتال
قد براها الوَجيف والدأب حتى
هي قُبٌّ شوازب الأكفال (٤)

الهجـاء :

أسلفنا أن ابن قيس لم يكن بحاجة إلى الهجاء ، ولذا كان نصيبه من شعره أقل من نصيب كل غرض سواه . فليس له منه إلا بضعة عشر بيتا : بعضها فى هجاء مغتاب ذكره بالسوء ، وبهته بما ليس فيه ، والآخر فى هجاء عبد العزيز بن عبد الله بن أسيد ، وكان فيما يقول

(١) الهزيم : الفرس القوى ، الشديد الصوت . يستن : يقمص
(٢) الجرشع : العظيم من الخيل
(٣) القت : اسم نبات
(٤) قب : ضوامر البطن ، دقاق الخصور . شوازب : ضوامر .

الطبرى خرج يطلب الأزارقة ، فبعث إليه قطرى جيشاً ، ولما التقى الجيشان هزم عبد العزيز ، وسبيت زوجه[١]

وهجاء ابن قيس على قلته يشير إلى ملكة فى التهكم والنقد ، وقدرة على الإيجاع فى الإزراء والثلب ، وعلى حسن التمييز بين مقام ومقام .

ففى هجاء المغتاب وكان على مايظهر من مجمل وصفه شيخا معروفا بالتدين والتقوى رماه بالافتعال ، وأخذه بحكم القرآن على الغيبة والمغتابين ، ثم سخر منه ، وعيره بأمه ، وهدده أن سيقع فى عرضه بما لا يصلح بعده أبدا ، ويومئذ يندم على إساءته إليه حيث لا يغنى الندم .

قال :

رُبَّ زارٍ علىّ لم يرمِنّى
عثرة وهو مِمْأس كذاب
خادع الله حين حل به الشيـ
ـب فأضحى وبان منه الشباب
يأمر الناس أن يَبَرّوا وينسى
وعليه من كَبرة جلباب
أيها المستحل لحىَ كُلْنه
من ورائى ومن وراك الحساب

(١) تاريخ الطبرى : ٧ : ١٩١

استفيقن فليس عندك علم
لا تنامن أيها المغتاب
تخذل الناس بالكتاب فهلا
حين تغتابنى نهاك الكتاب
لست بالمخبت التقى ولا المحـ
ـض الذى لا تذمه الأنساب (١)
إننى والتى رمت بك كرها
ساقطا خفها عليه التراب (٢)
لتلومن غب رأيك فينا
حين تبقى بعرضك الأنداب (٣)

وفى الأبيات الأخرى رمى عبدالعزيز بن عبدالله بأقبح ما يرى به الجندى من عيوب ، وحمله أهول ما يحمل القائد من تبعات . رماه بالجبن والنذالة والجزع عند اللقاء ؛ فذكر أنه لم يكد يلتقى الجمعان ، ويستحر بينهما القتال حتى ركبه الفزع ، وتملكه الذهول ؛ فلاذ بالفرار ، لا يلوى على شيء ، ولا يفكر حتى فى عرسه ؛ فكانت المخزاة الباقية ، والكارثة المفجعة ؛ إذ وقعت زوجه فى الأسر ، وحملت إلى غير بيتها ذليلة مقهورة . أما الجيش وقد تخلى

(١) المخبت : الخاشع . المحض : الخالص النسب .
(٢) التى رمت بك كرها : يريد بها أمه .
(٣) غب : عاقبة . الأنداب : آثار الجروح الباقية على الجلد :

عنه قائده فقد تولت الفوضى أمره ؛ ففرقت جموعه ، وشردت جنوده ؛ فهاموا على وجوههم حيارى مذهولين ، والموت يأخذهم من كل مكان ؛ فيخرون صرعى بين قتيل لقى حتفه فخلص من عذابه ، ومحتضر يعالج سكرات الموت ، ويكابد من العطش آلاما شدادا .

قال :

عبدَ العزيز فضحتَ جيشك كلهم
وتركتهم صرعى بكل سـبيل
من بين ذى عطش يجود بنفسه
ومُلَحَّب بين الرجال قتيل [١]
هلا صبرت مع الشهيد مقاتلا
إذ رحت مُنتـكِث القوى بأصيل [٢]
وتركت جيشك لا أمير عليهمُ
فارجـع بعارفى الحياة طويل
ونسيت عرسك إذ تقاد سَبِيَّة
تُبكى العيون برَنَّة وعويل

وقد سبقت رواية أبياته الثلاثة فى هجاء القباح من النساء ، ورأينا كيف أزرى بهن ، وسخر منهن ما شاء ، فلا حاجة إلى إعادة روايتها هنا .

(١) ملحب : مقطع . (٢) منتكث القوى : منحلها .

آراء القدماء فى شعره

نقدها والتعليق عليها

للقدماء فى ابن قيس آراء ، وبينهم فيه خلاف . وليس هذا بعجيب ، بل العجيب ألا يكون ؛ فما كان ابن قيس نكرة ، فيجهل ولا شعره رذلا ، فيغفل . وحقيق إذا كان الدرس والنقد أن يكون الخلاف فى الرأى والتقدير . غير أن هذه الآراء على وجه الإجمال مطلقة ، يندر أن يقوم إلى جانبها حجج أو تعليلات ، فكأنها ضرب من القواعد المقررة أو الحقائق المسلمة ، لا شك فيها ولا خلاف . ويندر كذلك أن تبرأ من الميل أو المحالاة ؛ فلثقافة الناقد وذوقه عمل فيها وتوجيه . وكثيرا ما تقوم على نظرة ضيقة ، أو ضرورة هينة ، أو خلاف فى الفهم، أو مناسبة عارضة من المفاخرة أو الملاحاة .

هى إذا فى جملتها أشبه باللمحات الخاطفة، أو النظرات العابرة منها بالآراء المنخلة ، أو الخلاصات المصفاة ، ينتهى إليها الباحث بالدرس والموازنة والتحليل ؛ فلذلك يقوم بينها من الخلاف فى بعض الأحيان ما لا يقوم إلا بين نقيضين . وسنعرض ما وقع لنا من هذه الآراء والمآخذ ، ثم نتبع كلا منها ما يبدو لنا من ملاحظة عليه أو تعقيب له .

فنهم من يعده شاعر قريش فى الاسلام [١] غـــير مزاحم ولامدفوع ، ولـكنه لايذكر لحكمه هذا سببا،ولا يقيم عليه دليلا. والأصمعى ويونس لايريانه حجة ولا ثقة . وبينة الأول أنه منع مصعبا من الصرف فى قوله :

ومصعب حين جد الأمـ ـر أكثرها وأطيبها [٢]

وبينة الآخر أنه استعمل (يالغ) مضارعا لولغ،حيث يقول:

مامر يوم إلا وعندهما لحم رجال أو يالغان دما

كما جاء فى بعض الروايات . وعنده أن ابن قيس إنما أصيب فى لغته من أنه « شغل نفسه بالشرب فى تـكريت » [٣] .

فـكلا الإمامين يحكم عليه بلفظة واحدة ، قد حسبه فيها مخطئا ثم استباح بهذا أن ينـكر فصاحته ، وينفى الصحة عن لغته ، كأنما كانت كلتا اللفظتين جماع الدخل والفساد ، فلا تغنى معها مزية ، ولا يشفع فى صاحبها فضل . وهذا بلا شك إسراف ؛ فعثرة المرء أيا ما يكن نوعها ، وبالغة ما بلغت من الشناعة والقبح — لا يصح أن تصرفنا عن محاسنه ، ولا أن تحملنا على الغض منه واستصغار شأنه ، فـكيف إذا كانت هينة يسيرة ؟ أو صوابا خالصا ؟

فمبلغ العلم فى منـــع المصروف من الصرف أنه ضرورة ،

---

(١) الأغانى : ٥ : ٧٥ (٢) الموشح للمرزبانى : ١٨٦

(٣) الأغانى : ٥ : ٨٨

ولكنها ليست قبيحة منكرة ، بل لقد أجازها ثعلب وغيره فى الاختيار [١] . وهى مع ذلك ليست نادرة ، وليس لابن قيس منها سوى هذه التى ينكرها الأصمعى عليه . وأما يالغ فصحيحة ، وقد رواها القاموس واللسان ، وإذا كان يونس لم يسمعها فليس الذنب فى ذلك ذنب ابن قيس ، ولا تبعته عليه . ولو لم يكن لولغ مضارع غير يلغ لأمكن أن يظن بالشاعر أنه اضطر لإقامة وزن البيت أن يضع يالغ ، أو يولدها من يلغ بإشباع فتحة الياء . أما وللفعل مضارع آخر وهو يَولغ ، والوزن يستقيم به كما يستقيم بيالغ فلا نعرف سببا يمكن أن يحمله على هذا الافتعال .

ولا ندرى لماذا كانت إقامة ابن قيس بتكريت أو غيرها فى مثل عصره ، ثم اشتغاله هناك بمعاقرة الخمر مفسدة للسانه ، مذهبة لأسباب الثقة به ، وقد انثال الناس أفواجا من الجزيرة منذ فتح الله عليهم الفتوح ، يطوفون فى الآفاق ، ويتنقلون بين مختلف البلاد ، وفيهم المتصون الجاد والعابث المتهالك ؟ أما لو صح الأخذ بهذا المبدأ وجرى الناس على التسليم به لكان عسيرا مجهدا أن نجد بين العرب لسانا صحيحا منذ تخطى الإسلام بهم حدود الجزيرة .

ويعده ابن سلام فى شعراء الطبقة السادسة مع الأحوص ونصيب وجميل [٢] ولا خلاف أن الجمع بين ابن قيس والأحوص

(١) شرح الأشمونى لألفية ابن مالك : ٣ : ٢٠٨

(٢) طبقات الشعراء : ١٣٧ .

ونصيب من قبيل الجمع بين نظراء متقاربين ؛ فهم على اختلافهم في الأسلوب والفن لم يقصروا أنفسهم على لون واحد من ألوان الشعر . ولعل من أبرز الخصائص التى تدل عليهم ، وتميز أشعارهم بالإضافة إلى ابن قيس وشعره أن الأحوص فى جملته أرصن شعرا ، وأبين فحولة ، وأنخر فنا ، وأن النصيب لا يدانيه رقة ديباجة ، وحلاوة نغم ، وخفة موسيقا .

وأما جميل فهو معهم غريب ؛ لأنه شاعر غزل ، لا يكاد يفارق الغزل ، وإن يفعل فبدافع منه فى الواقع [1] ؛ فهو إذا ميدانه الوحيد الذى لا يلق أحدا من طبقته إلا فيه . وهو إذ يلق ابن قيس فيه موضوعا يفارقه عاطفة ووجدانا ، ويفارقه طبعا وفنا . فجميل أصدق هوى ، وأرق صبابة ، وأسمى فى الحب منزعا وابن قيس أدمث طبعا ، وأعذب روحا ، وآنق فنا ، وموسيقاه أوفر حركة ، وأنشط انبعاثا ، وأسرع تموجا واهتزازا .

وقال سعيد بن المسيب لنوفل بن مساحق : يا أبا سعيد . من أشعر : أصاحبنا أم صاحبكم ؟ يعنى عبيد الله بن قيس الرقيات ، أو عمر بن أبى ربيعة ، فقال نوفل : حين يقولان ما ذا ؟ فقال : حين يقول صاحبنا :

---

(١) حديث الأربعاء : ١ : ٢٨٤

خليــــلى ما بال المطى كأنمـــا
نراها على الأدبار بالقوم تنكُص
وقد أبعـد الحادى سُراهن وانتحى
بهن فما يألو عجـــول مُقلّص (١)
وقد قُطعت أعناقهن صبابة
فأنفسنا ممـــا تُكلَّف شُخَّص
يزدن بنـا قربا ، فـــيزداد شوقنا
إذا زاد طول العهد والبعد ينقص

ويقول صاحبكم ما شئت . فقـال له نوفل : صاحبكم أشهر بالقول فى الغزل ، أمتع الله بك ، وصاحبنا أكثر أفانين شعر (٢)

ويبدو ابن المسيب فى كلامه هذا أشبه بالمفاخر منه بالمناظر ، وإلا فما باله عدل عن التصريح باسمى الشاعرين إلى التكنية عنهما بصاحبنا وصاحبكم ؟ وكيف يستقيم التحدى بالمقطعة الواحدة من شعر عمر لكل مالابن قيس من شعر دون تحديد ؟ والشاعران بعد يختلفان اختلافا كبيرا . وإنما يكون التفاضل جدا من الأمر ، وعمـــلا من الأعمال ذات الشأن حين لا يكونان كذلك ؛ حتى تتهيأ المقابلة ، ويمكن الاستخلاص والحكم . وليست المقطعة

---

(١) مقلص : مشمر

(٢) الأغانى : ٥ : ٩٢

أو القصيدة يقولها الشاعر ، ولا يكون لنده مثلها بكافية فى تفضيله والحكم له . فربما يكون للآخر قصيدة أو قصائد هى فى موضوعها أبرع من تلك فى موضوعها ، وأدل منها على البراعة والامتياز .

أما مساحق فقد أصاب الحز ، ووقع فى كلامه على الرأى ، فعمر شاعر الغزل قد أكثر منه واشتهر بين الناس . أما ابن قيس فصاحب فنون شتى ، فأنى يلتقيان على النحو الذى يريد سعيد ؟ ومساحق كما ترى يتجه إلى الشاعرين أكثر مما يتجه إلى الشعرين . ولو شاء لوجد السبيل ميسرة للكلام عنهما فى الغزل ؛ فلابن قيس فيه مشاركة حسنة وشأن مذكور .

واستنشد ابن أبى عتيق كثيرا ؛ فأنشده قوله : « أبائنة سعدى نعم ستبين » حتى إذا بلغ إلى قوله :

وأخلفن ميعادى وخُنّ أمانتى

وليس لمن خان الأمانة دين

فقال له ابن أبى عتيق : أعلى الأمانة تبعتها؟ فانكف ، واستغضب نفسه ، وصاح ، وقال :

كذبن صفاء الود يوم محله

وأنكدننى ، من وعدهن ديون

فقال له ابن أبى عتيق : ويلك ، هـذا أملح لهن ، وأدعى

للقلوب إليهن . سيدك ابن قيس الرقيات كان أعلم منك ، وأوضع للصواب موضعه فيهن . أما سمعت قوله :

حب ذاك الدل والغنُج | والتي في عينها دَعَج
والتي إن حدثت كذبت | والتي في وعدها خَلجَ
وتُرى في البيت صورتها | مثل ما في البيعة السُّرُج
خبِّروني هل على رجل | عاشق في قبلة حرج

فسكن كثير ، واستحلى ذلك وقال : لا إن شاء الله . فضحك ابن أبي عتيق حتى ذهب به(١) .

والواقع أن كثيرا غير مخطىء ولا ملوم ، إذ يشكو في البيت الأول أن صواحبه أخلفن موعده : وخن أمانته . فالخلف وخيانة الأمانة يعقبان بلا شك خيبة مرة وألما شديدا . ولا ندرى ماذا عليه لو تبعهن على رجاء من الوفاء ورعاية الأمانة؟ أليست المتابعة على اليأس لا تكون لغير مدله مسلوب الإرادة والتفكير؟ وإذا لم يكن كثير كذلك في الواقع فهل نريده عليه بالرغم منه ؟

أما البيتان الآخران فليس منشأ الخلاف بينهما الخطأ والخطل في بيت كثير ، والإصابة والتوفيق في بيت ابن قيس . كلا ، ولكن منشأه فيما يظهر اختلاف الشاعرين في النظر والإحساس ، فكثير نظر إلى كذب صواحبه من ناحية صلته بالود وعمله فيه ، فرآه

---

(١) الأغانى : ٥ : ٩٦

آفة له ، إذا أصابته عاثت فيه وعكرت صفوه ؛ فأنكره وضاق به . أما ابن قيس فنظر إليه من ناحية دلالته والمراد به ، فرآه دلالا لا إخلافا ، وأدرك أن المراد به الترغيب والإغراء وليس الصد والهجران ؛ فاستملحه ، وكلف به . وكلاهما فى بيته صحيح النظر صادق الإحساس .

وروى صاحب الأغانى هذه الأبيات ، وهى مما قال ابن قيس فى عبد الله بن جعفر :

تَقَدَّت بِىَ الشهباء نحو ابن جعفر
سواء عليها ليلها ونهارها
تزور امرأ قد يعلم الله أنه
تجود له كف بطىء غرارها [١]
ووالله لولا أن تزور ابن جعفر
لكان قليلا فى دمشق قرارها

ثم روى أن البيت الأول مما عيب على ابن قيس ؛ لأنه نقض صدره بعجزه ؛ فقال فى أوله : إنه سار سيرا بغير عجل ، ثم قال : سواء عليها ليلها ونهارها . وهذا غاية الدأب فى السير ، فناقض معناه فى بيت واحد [٢] .

---

(١) الغرار فى الاصل : منع الناقة درتها ، فالمراد بطىء منعها المعروف كما يقول صاحب الأغانى

(٢) الأغانى : ٥ : ٨٦

فنقد البيت كما ترى مبنى على أن (تقدت) فيه بمعنى سارت غير معجلة ، وهو معنى صحيح ، لكنه ليس المعنى الوحيد ؛ ففى اللسان : تقدت به دابته : لزمت سنن الطريق ، وتقدى به بعيره أسرع . وإذا لا تناقض فى البيت ولا خلاف . على أن الاضطرار إلى الدأب فى السير لا يستوجب حتما الإسراع فيه ؛ فقد يؤثر المسافر لسبب ما أن يسير طويلا فى هينة ورفق على أن يسير قصيرا فى إسراع وعنف .

وروى الأغانى أيضا : أن ابن قيس مر بابن أبى عتيق ، فسلم عليه ، فقال : وعليك السلام يافارس العمياء ، فقال له : ما هذا الاسم الحادث ياأبا محمد بأبى أنت ؟ قال : أنت سميت نفسك حيث تقول : سواء عليها ليلها ونهارها ، فما يستوى الليل والنهار إلا على عمياء . قال : إنما عنيت التعب . قال : فبيتك هذا يحتاج إلى ترجمان يترجم عنه (١) .

وكلام ابن أبى عتيق يشبه أن يكون هزلا لا جدا ، أو مداعبة لا نقدا إلا حين نتجاهل المقام ، ولا نقيم لدلالته وزنا . فالشاعر فيما يظهر لا يقصد إلى وصف المطية ، ولكن إلى الرثاء لها والشفقة عليها ؛ لكثرة ما احتملت من عنت السير وبعد الطريق ، وذلك دأب الشعراء المادحين فى كثير من الأحوال . فكيف إذا

---

(١) المصدر السابق : ٨٩ .

يصح فى الفهم أن سواء عليها ليلها ونهارها تدل على أنها عمياء ، قبل أن تدل على أنها لاغبة مكدودة ، لا تكاد تظفر بهدأة يسيرة فى ليل ولا فى نهار ؟ وكيف يكون هذا المعنى من الخفاء بحيث يحتاج إلى ترجمان يترجم عنه ؟ لأكثر الكلام إذا لا يستقيل بالدلالة والإفهام .

وروى المرزبانى أن الأصمعى لحن ابن قيس فى قوله :

تبكيكمُ أسماء مُعْوِلة وتقول ليلى : وارزيئتيه

قال : وكان ينبغى أن يقول : وارزيئتاه ، كما تقول : واعماه ، وا أخياه [1] .

والواقع أن ابن قيس لم يلحن ، ولا أن الوجه الذى طابه الأصمعى واجب ، فالمندوب هنا مضاف إلى ياء المتكلم ، وقد أجراه الشاعر مجرى المنادى ، فلم يلحقه الألف . وهذا جائز ، ولو أنه غير الغالب ، ثم زاد هاء السكت فى آخره ، كما زادها فى سائر القوافى [2]

(١) الموشح : ١٨٦

(٢) راجع باب الندبة فى شرح التصريح على التوضيح .

ضرورات شعرية

مامن شاعر ولا ناثر إلا تعرض له ضرورات التعبير فيما يعالج من قول، كما تعرض ضرورات العمل لكل عامل فى هذه الحياة.

وضرورات الشعر أكثر عددا، وأصعب مراسا، وأدق مسالك من ضرورات النثر؛ لأن الشعر مثقل بالقيود، والنثر مطلق إلا من قيود الذوق الأدبى، والعرف المتوارث فى الصياغة والتأليف. إلا أن مواقف الشعراء من الضرورات يختلف اختلافا كبيرا فمنهم الدمث الوادع الرقيق، أو المتوجس الحذر الشديد المبالاة. وكلا هذين لا يسكت عن الضرورة، ولا يطيق احتمال تبعتها، ولا يرضى أن يعنى قراءه بأثقالها، فلا يزال يحتال لها، ويترفق بها حتى يخلص منها. وإلا ففيما لاضرورة فيه كفاية وغناء ومنهم المعتز بنفسه القليل التفكير فى قرائه، أو المعجب بأدبه، الشديد الحرص عليه والإيثار له. وكلا هذين لا يرى واجبا أن يتخلص من الضرورة، أو أن يستغنى عما وقعت فيه، فهو يبقى عليها ويخرجها للناس.

وترجع الضرورة فى منشئها إلى كلال لذهن، أو فتور الحس أو قلة الثراء من اللغة، أو صعوبة الفكرة، أو قلة نضجها،

أو نحو ذلك . وهى درجات بعضها فوق بعض ؛ فنها الخفيفة اليسيرة ، ، لاتكاد تستوقف النظر ، أو تثير الإنكار ، أو تدل على مكابدة واضطرار . ومنها الفريدة البلقاء ، تسرع إلى الذهن ، وتشيع فى الناس ؛ فكاهة مجلس ، ومثار تندر واستضحاك . ومنها الدميمة الوقاح ، ينقبض لها الصدر ، وتكاد تغثى منها النفس .

ولا ينبغى كائنة ما كانت أن نغفل أمرها ، ولا أن نجاوز بها طورها فى ميزان المفاضلة والتقدير ؛ فإنما هى هنــــة أو عثرة ، والإنصاف والحكمة يوجبان أن نقدرها بقدرها ، وأن نضعهـا بموضعها ، غير معرضين عن حسابها ، كأن ليس لصاحبهـا إلا المحاسن خالصة ، ولا مبالغين فى تصويرها والتعليق عليهـا ؛ كى لاتجور على محاسنه ، وتصغر من قدرها ، فإذا هي كاسفة متضائلة.

وضرائر ابن قيس قليلة ، وهى على قلتها هينة ، ونظائرها فى الشعر كثير . وأظهر ما يعرض لنا منها :

١ — تكرار بعض معانيه وألفاظه . وأكثر ما يكون ذلك حين لا يتنوع الموضوع . وربما امتد فكان فى عدة أبيات ، وربما قصر فكان فى بيت أو بعض بيت . وهو على كل حال أثارة ضيق وإقلال ، أو عجب وانخداع . وأيا ما يكن سببه فليس بينه وبين البراعة والتوفيق نسب ولا صلة ، وليس يلقى من القارىء ارتياحا ولا إقبالا . وقد يغتفر للناشىء المتكلف . أما المجرب المطبوع فهيهات

فمن تكراره قوله فى مدح بنى أمية :

إن جلسوا لم تَضِق مجالسهم
والأسْد أسد العرين إن ركبوا

فهو مكرر مع قوله فى مدحهم أيضا :

إن جلسوا لم تضق مجالسهم
أو ركبوا ضاق عنهم الأفق

وقوله يمدح عبد العزيز بن مروان :

ومَن تُفيض الندى يداه ومن
ينتهب الحمد عند مُنْتَهَبه

فهو مكرر مع قوله يمدحه أيضا :

ينتهب الحمد باليدين كما
ناهب فُرسان غارةٍ نَعَما

وقوله يمدح عبد الله بن جعفر :

حَلَّ فى الجوهر المهذب من ها
شم اهل الندى وأهل العفاف

عُوده فى الكرام عود نضار
لا كعيدان خِروع وخِلاف

يَهَبُ الخيل والولائد والبُخْ
ت بأجلالها مع الأخفاف

فإنه مكرر مع قوله يمدح عبد العزيز بن مروان :

وأنت فى الجوهر المهـــذب من
عبـــد منـاف يداك فى سببـــه
يَخلفُك البيض من بنيـــك كما
يُخلَف عـــود النضـار فى شُعَبه
ليسوا من الخـــروع الضعيف ولا
أشبـاه عيـــدانه ولا غَـرَبه

وقوله يمدح عبد الله بن جعفر :

لم أَجِـد بعـــدك الأخـــلاء إلا
كَـثِماد بهـــا قذى أو نِـقـاعُ (١)

فهو مكرر مع قوله فى رثاء طلحة الطلحات :

لم أجـــد بعـــدك الأخلاء إلا
كثماد منزوحـــة وقـلات (٢)

٢ — التضمين ، وهو تعليق البيت بتاليه ، فلا يستقل الأول بأداء معناه ، ولا يتم المراد به إلا مع الآخر . وهو عند صاحب المثل السائر غير معيب ، فالوقوع فيه ليس ضرورة ، ويحتج لذلك بأمرين : الأول ، أن البيت من البيت فى الشعر بمنزلة الفقرة من

(١) الثماد : الماء القليل لا مادة له ، النقاع : جمع نقع وهو الغبار
(٢) القلات : جمع قلت وهو النقرة فى الصخر .

الفقرة فى السجع . أو ليس الشعر فيما يعرفون هو الكلام الموزون المقفى يدل على معنى ، والسجع هو الكلام المقفى يدل على معنى ؟ فقد انحصر الفرق بينهما إذا فى الوزن ولا مزيد .

وقد وقع التضمين فى غير موطن من سجع الكتاب الكريم ولو كان عيبا ما وقع فيه ، فلا كلام أفصح من كلام الله ، ولا إمام أحق منه بالأسوة والاتباع .

قال تعالى فى سورة الصافات : « فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ، قال قائل منهم : إنى كان لى قرين ، يقول: أئنك لمن المصدّقين ، أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمدينون . »

فهذه الفقر الثلاث الأخيرة مرتبط بعضها ببعض ، فلا تفهم كل واحدة منهن إلا بالتى تليها . وقال فى هذه السورة أيضاً : « فإنكم وما تعبدون ، ما أنتم عليه بفاتنين ، إلا مَن هو صالِ الجحيم . » فالآيتان الأوليان لا تفهم إحداهما إلا بالأخرى .

وقال فى سورة الشعراء : « أفرأيتَ إنْ متّعناهم سِنين ، ثم جاءهم ما كانوا يوعدون ، ما أغنَى عنهم ما كانوا يُمتّعون. »

فهذه ثلاث آيات لا تفهم الأولى ولا الثانية منها إلا بالثالثة . ألا ترى أن الأولى والثانية فى معرض استفهام يفتقر إلى جواب ، والجواب هو فى الثالثة ؟

قد تبين من هذه النصوص أن التضمين سائغ فى فقار السجع ،

وتبين مما سلف أن علاقة هذه الفقار بعضها ببعض تشبه علاقة الأبيات بعضها ببعض . فإذا ساغ التضمين فى السجع فهو حقيق أن يسوغ فى الشعر بحكم المشابهة والقياس .

والأمر الآخر أن العرب قد استعملت التضمين كثيراً ، وورد فى أشعار فحول الشعراء ، من أمثال امرىء القيس ، والفرزدق ، وبعض شعراء الحماسة .(١)

والواقع أن الفرق بين السجع والشعر عظيم ، وأنه لاينحصر فى الوزن ، ولكن يقع فيه وفى جوانب أخر : يقع فى الباعث على استعمال كل منهما ، وفى الغاية التى تراد به .

فالنثر يستعمل فى الأصل لأنه أكثر انطلاقا ، وأرحب ميدانا ، وأيسر علاجا ، ويقصد به إثارة تفكير المخاطب ، وحمله على الاقتناع بالمراد . والشعر يستعمل فى الأصل لأنه لغة العواطف ، وترجمان المشاعر ، ويقصد به إلى التأثير فى المخاطب ، وتحريك مواجده على النحو المنشود .

ويقع الفرق أيضاً بين النثر والشعر فى المادة والسمت ، فالنثر يعتمد فى أكثر الأمر على الفكر المجردة ، والحقائق الخالصة . والغالب على سمته السماحة واليسر فى الصياغة والتعبير . والشعر

---

(١) المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر : ٤٥٨ ، ٤٥٩ بتصرف .

يعتمد فى أكثر الأمر على الخيال ، والغالب على سمته الأناقة والترفع ، وابتغاء الافتنان والتصنيع .

وربما خطر هنا بالبال أن بعض كفار العرب كان يزعم النبى شاعرا ، والقرآن شعرا ، مع أنه ليس سجعا كله . وقد يكون فى هذا الزعم مايشعر بالتقارب بين الشعر والنثر عامة ، وبينه وبين السجع خاصة فهل من حرج على من يجيز فى الشعر بعض مايجيز الاستعمال الفصيح فى السجع ؟

وعندى أن هذا الخاطر ليس بذى شأن هنا ولا قيمة ، فما كان صاحب هذا الزعم يصدر فيه عن بينة ووعى ، ولكن عن حيرة وذهول ، أو ماهو شر منهما ، كدأب آخرين زعموا النبى ساحرا ، وزعموه مجنونا ، وقالوا عن القرآن : إفك افتراه ، وأعانه عليه قوم آخرون . وقالوا عنه : أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا .

ولعل أكثر ما يدل عليه هذا الخاطر إذا لم يكن بد من أن تكون له دلالة هنا — هو أن الوزن لايعد الفارق الوحيد بين الشعر والنثر : سجعه ، ومرسله ، بل لعله لا يعد الفارق الذى ليس أجلى منه بين سائر الفروق . وإلا كان معنى قول القائل : إن القرآن شعر — أنه موزون . وهيهات . فهو عربى ، يعرف لغته ، ويميز شعرها من نثرها ، ويفرق بين الموزون منها وغير الموزون .

ولو فرضنا أن هذا هو معناه الذى يريد ما استحق عليه ردا ولا تفنيدا ؛ فما يقول بهذا إلا جاهل أو مخبول ، وكلاهما لايظن بأحد أن يستمع له ، أو يقبل منه . لكننا نرى القرآن قد عنى به ، ورد عليه ، إذ يقول : « وما علمناه الشعر ، ومايبنغى له » .

هناك إذا اعتبارات غير الوزن ، هى التى جالت فى نفس هذا الزاعم ، وسولت له أن يقول ماقال . وعلى هذا لايتوجه النفى فى الآية إلى الوزن وحده ، ولايقع عليه أولا ، ولكنه يتوجه أيضا إلى هذه الاعتبارات ، ويقع عليها قبل كل شىء .

وأياما تكن الحقيقة فى هذا الخاطر وما ينطوى عليه ، ففى سواه شاهد على أن الوزن فى الشعر ليس كل شىء ولا أهم شىء .

فقد رووا أن غلاما من ولد حسان وصف حيوانا لسعه ، فقال : كأنه ملتف فى بردى حبرة . فصاح أبوه : « شعر ورب الكعبة » . [1] يرى أن ولده قد صار شاعرا ، أو يرجى على الأقل أن يكونه ؛ من أنه آنس منه مخايل القدرة على التخيل والتصوير . وهما عنده مادة الشعر وأداته ، فمن أوتيهما فقد أوتى الشعر ، ومن حرمها فليس منه فى شىء . وأما غيرهما فأقل من أن يحسب له فى هذا المجال حساب ، أو يكون له فيه خطر مذكور .

---

(١) الوسيط : ٤٢

وكان فصحاء العرب يؤثرون إقامة المعنى على إقامة وزن الشعر ؛ فيزيدون عليه ، وينقصون منه ؛ ليجيء معناه على مايريدون .

ومما يروون فى ذلك أن عليا رضى الله عنه أتى بابن ملجم ، وقيل له : إنا قد سمعنا من هذا كلاما ، فلا تأمن قتله لك . فقال : ما أصنع به ؟ ثم قال رضوان الله عليه :

اشدد حيازيمك للموت ... فإن الموت لاقيكا
ولا تجزع من الموت ... إذا حل بواديكا

والبيت الأول كما ترى لا يستقيم وزنه إلا بحذف كلمة (اشدد) منه ؛ فيصير هكذا :

حيازيمك للموت ... فإن الموت لاقيكا [1]

وقد يبدو غريبا أن يحرص الإمام هكذا على ذكرها ، مع أن الوزن لا يحتملها ، والأسلوب فى غنى عنها ؛ لدلالة العبارة عليها .

غير أن ثمة اعتبارات المقام ، فالظاهر أن الإمام رأى أن يختصها بالقصد ، ويؤثرها بالرعاية على كل شيء ، وقد استجاز من أجلها ذكر هذه الكلمة ، وهى كما سلف مقولة كمحذوفة ، وليس لها مع ذلك فى البيت مكان .

لقد جاءوه بابن ملجم ، وإنهم عليه لساخطون ، يريدون عن

---

(١) الكامل للمبرد : ٢ : ١٢٨

بينة وفى غير هوادة أن يؤخذ بنيته قبل أن تصبح جرما واقعا ، فقد سمعوا منه كلاما لايقوله إلا عدو غادر ، يسر البغضاء ، ويحكم الكيد ، ويترقب الفرصة أن تمكنه مما يريد .

فلم يكن بد أن يجمع الإمام لهم ، ويستعين عليهم ماوسعه الجمع والعون . عسى أن يطفىء ثورتهم ، ويرد إلى نفوسهم الثقة واليقين ؛ فيأخذوا مثله أهبتهم للموت ، ويروضوا أنفسهم على الرضا به ، والتسليم لقضاء الله فيه ، مصيرا محتوما لامفر منه ولانجاة .

فألقى إليهم كلامه واضحا محدودا ، لايريد أن يضيعوا فى تأمله وإعمال الفكر فيه وقتا ولو يسيرا ، فجاء البيت على ما رأينا .

أفيصح بعد هذا كله أن يقال : إن الشبه بين السجع والشعر بحيث يستطيع أن يعدل كلا بصاحبه فى الاعتبار والحكم ، فما يسوغ فى الأول مثلا بحكم الاستعمال المأثور ، يسوغ فى الآخر بحكم المشابهة والقياس ؟

وما أدرى كيف لايكون فرق بين ارتباط الفقرة بالفقرة فى السجع ، وارتباط البيت بالبيت فى الشعر كما يقول صاحب المثل السائر؟

فمثل البيت فى القصيدة كمثل اللؤلؤة فى العقد ، ولهذا شبهوها به ، وخلعوا من أوصافه عليها ، يريدون أن كلا طائفة من وحدات ، تستقل شكلا ، وتتوالى وضعا ، وتتساوق نظما لغاية تراد .

ثم إن السامع فى القصيدة يترقب المعنى ، ويتتبع صوره أكثر

عما يترقب الموسيقا ، ويتتبع أنغامها ؛ لأن تجربته معها تجعله يتوقع أن يجيء فى كل بيت معنى جديد ، ولا تجعله يتوقع أن يجيء فى كل بيت نسق من الموسيقا جديد ، فقد مضى العرف الشعرى أن تجيء القصيدة على نسق من الموسيقا واحد يبدأ فى المطلع جديدا ، ويتردد فى سائر الأبيات معادا .

فالسامع حيال المعنى مدرك متفهم ، وحيال الموسيقا متابع مستسلم ، يرسل نفسه مع البيت ما كانت له بقية ، فإذا أتت القافية وقفت عندها ، ريثما تضم شتاتها ، وتأخذ أهبتها للبيت الذى يليه ، فإذا صارت إليه كان شأنها معه كشأنها مع سابقه ، وهلم جرا ، حتى تبلغ الختام .

فإذا هى أُخذت بالتضمين فى القصيدة أصابها منه مثل ما يصيب الماضى فى بعض الطريق ، يبلغ منزلا من منازله ، فيهم بالنزول فيه ، ولكن يمنعه مانع منه .

فالبيت فى القصيدة كالمرحلة فى الطريق ، وقافية البيت كنهاية المرحلة . وقد اعتاد السامع كلما بلغ قافية أن يقف عليها ، لكن التضمين يبطل صلاحها للوقف ، لأنه يصيرها خطوة فى مرحلتها ، وإن كانت لنهاية لها ، فالسامع حين يدركها يحس أنه مدفوع عنها ، ومضطر إلى اجتيازها ، تشوفا إلى بقية الكلام ، والتماسا لنصيبها من الفائدة .

بقى مما يحتج به صاحب المثل السائر لرأيه فى التضمين — أن العرب أكثرت منه ، وأنه واقع فى أشعار الفحول .

وما أرى فى هذا خصوصية يمكن أن تجدى على التضمين ، أو أن تغير من حقيقة الرأى فيه . فذلك دأب الضرورات أبدا ، ما منها إلا لها فى الشعر ذكر ، ولها منه شاهد . وليس الاستكثار من ضرورة ولا وقوعها فى شعر الفحول بالذى يخرجها من الضرورات ، ويجعلها فى المباحات ؛ لأن الكثرة نسبية لا مطلقة وليست فحولة الشعر فى سلامته من الضرورة ، ولا فسولته آتية من التورط فيها وكفى .

فلكل شاعر فحل نصيب من الضرورات أو يكاد ، بل ربما كان الفحول أجرأ من غيرهم على الضرورة ، وأقل منهم مبالاة بها ، وتحرزا منها .

على أن بعض الضرورات أقبح من بعض ، ومنها ما يخف حينا ، ويثقل حينا آخر . ومن الخفيف المحتمل من التضمين قول امرىء القيس :

فقلت له لما تمطى بصلبه

وأردف أعجازا وناء بكلكل :

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلى

بصبح وما الإصباح منك بأمثل

فشائع معتاد أن يسكت المتكلم سكتة خفيفة عند مقول القول حين تكثر من قبله الفضلات ، وتتوالى القيود ، إيذانا بأنه قد خلص إلى بقية الفائدة ، وأشرف على مكانها ، فموشك أن ينطق بها .

ومن الثقيل المستكره قول الحماسى :

لعمرى لرهط المرء خير بقية
عليه ، وإن عالَوا به كل مركب
من الجانب الأقصى وإن كان ذا غنى
جزيل ، ولم يخبرك مثل مجرب

فقبيح مسترذل أن يقف متكلم على اسم التفضيل أو بعض متعلقاته كما هنا ، ثم يبدأ بالمفضل عليه ، كأنه فاتحة كلام جديد . فليس كمثل هذا تقطيع متصل ، ولا مباعدة بين متلازمين .

ومن تضمين ابن قيس قوله :

تقول سلمى : ألا تنام إذا
نمنا ؟ فقلت : الهموم والأرق
تمنعنى ، وادّكار نصر بنى
عمى إذا حل جارىَ الرهق

وقوله :

تَقِنّ الله فىّ رقىّ واخشَى
عقوبة أمرنا لا تقتلينا

بعيشك وارفقى بى أم عمرو
ويوم رجال أهلك يَنذُرونا
دَمِى ، ثم اندخلت إليك حتى
تخطيت النيام الحارسينا

وكلاهما كما ترى من التضمين القبيح .

٣ — الإقواء ، أى اختلاف حركة الروى . وهو أيضا من أسباب تخالف النسق والتنغيم عند المقاطع ، ومنه فى شعر ابن قيس الرقيات :

فما كان من ذَكوان ذنب لدعوة
دعوها ، ولكنّ ابن حَيدة واهنُ
فلو أُسمع الجَحّاف أو نال صوتُها
صبيع بن خَوْلى لَعزّ الظعائن
فقلت لها سيرى ظعين فلن ترى
بعينيك ذلا بعد مرج الضيازنِ

وقوله :

أَوقَدَتها بالمسك والعنبر الرط
ـب فتاة قد ضاق عنها الإزارُ
تَتّقِى بالحرير من وهج الشم
س وخَزّ العراق والأستارِ

٤ — تسهيل همزة القطع ، وقطع همزة الوصل . والجمع بين هاتين الضرورتين فى مكان لا يعنى أنهما تتفقان فى الدلالة وتغير النطق . فالواقع أن الأولى تدل على السجاحة واليسر ، بل الرقة والظرف أكثر مما تدل على الاضطرار والاستباحة . حتى لقد يسبق إلى الوهم أن الشاعر لم يتورط فيها تكلفا واعتسافا ، ولكنه سعى إليها قصدا واختيارا ، إيثارا للتى هى ألين وأخف مئونة وأداء ، لكثرة ما جاء به منها ، وندرة ما جاء به من الأخرى . ومثالها قوله :

حَىِّ الاختين قد أَحَمَّ الفراق
ودنت رحلة لنا وانطلاق (١)

وقوله :

إن الخليط قدَ ازمعوا تركى
فوقفت فى عَرَصاتهم أبكى

وقوله :

وقالت : لوَ انا نستطيع لزاركم
طبيبان منا عالمان بدائكا

---

(١) أحم : دنا

إلى أن قال :

وقد كان قومى قبل هـذا وقومها
قدَ اوْرَوا بها عَوْدا من المجد تامكا [١]

وقد يصطنع التسهيل فى كلمة لا عهد لها به ، ولا يدور فى الظن أن يصطنع فيها . وقد يرهق به أخرى فيحيف عليها ، ويحذف منها ، فإذا كلتاهما غريبة خفية المعالم ، حتى ما يكاد يعرف أصلها إلا بعد تقليب وإمعان نظر . وذلك كتخفيف مَرْآة إلى مَرَاة حيث يقول :

كالأقحوان مراته ومذاقه للذائق
صهباء صِرف قَرْقَف شيبت بنُطفه بارق

وتخفيف مستلئم ، أى لابس اللأمة إلى مستلم فى قوله :

لما رأوا بغى قومهم لهمُ
إذ قطعوا من شوابك الرحم
كانت حصونا لهم سيوفهمُ
وكل حامى الحفاظ مستلم

---

(١) أوروا : أسموا وتهدوا ، من أورى الابل سمنها وأكثر شحمها . العود : السودد القديم. تامكا : رفيعا من تمك السنام إذا طال وارتفع ، وتقبض واكتنز والتامك أيضاً السنام ما كان ، والناقة العظيمة .

وقوله :

لم نستطعها إلا بمستلم

عارى الظنابيب تحته فرس[١]

أما قطع همزة الوصل فمثاله قوله :

قالت كثيرة لى قد كبرت

وما بك أليوم من داهمه

وقوله :

يتق الله فى الأمور وقد أفـ

لح من كان همه الإتقاء

ونختم هذا البحث كما بدأناه بحمد الله ، والصلاة على رسوله وسائر الأنبياء والمرسلين . صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين

---

(١) الظنابيب : جمع ظنبوب ، وهو حرف الساق من قدم ، أو عظمه . وكنى بعارى الظنابيب عن الاستعداد والتشمير .

فهرس الكتاب

فهرس الكتاب

الخطأ والصواب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٥١	١٣	عسى	عسٍ
٨٣	١٥	الأختين	الاختين
٨٥	١٠	الطوائف	الطواف
١٠٥	١	بشفٍّ	بشفٍّ
١١٤	٤	سنتَها	سنتُها
١٢٠	٣	لاتُسميتينّ	تُسميتنّ
١٢٧	١١	حقيقيا	حقيقا
١٤٨	٦	بجــوٍّ	بجوٍّ
١٦٢	٤	يستقيل	يستقل

قائمة الكتب

رقم	اسم الكتاب	اسم المؤلف	الثمن بالمليم
١	يسألونك	الأستاذ عباس محمود العقاد	٢٥٠
٢	أثر الشرق فى الغرب	دكتور فؤاد حسانين	١٥٠
٣	قصة الكهرباء واللاسلكى	الأستاذ محمد عاطف البرقوقى	٢٥٠
٤	مشكلاتنا الاجتماعية	« محمد عطيه الابراشى	٢٠٠
٥	الحبشة	« حسن محمد جوهر	٢٠٠
٦	الغزل عند العرب	« حسان أبو رحاب	٢٥٠
٧	عائشة أم المؤمنين	الآنسة زاهيه مصطفى قدوره	٢٥٠
٨	الفلسفة القرآنية	الأستاذ عباس محمود العقاد	٣٠٠
٩	أحاديث الصباح	الشيخ محمود شلتوت . الشيخ محمد محمد المدنى	١٥٠
١٠	أبطال الشرق	الأستاذ محمد عطيه الابراشى	١٥٠
١١	أبو العتاهية	« محمد أحمد برانق	١٥٠
١٢	الراهبة المتوحشة	دكتور عباس ابراهيم حسن	١٠٠
١٣	المهد الذهبي	الاستاذان وهبى اسماعيل حقى . ابراهيم خيرالله	١٠٠
١٤	صرخة فى واد	الأستاذ محمود غنيم	٣٠٠
١٥	الصحافة والصحف	المرحوم الأستاذ عبدالله حسين	٢٥٠
١٦	الوزراء العباسيون	الأستاذ محمد أحمد برانق	٢٠٠
١٧	الاستعمار الفرنسي	« أحمد رمزى	١٥٠
١٨	اللعب والعمل	دكتور على عبد الواحد	٨٠
١٩	من كل نبع قطرة	الأستاذ حسن جوهر	٦٠
٢٠	ولادة	الأستاذ على عبد العظيم	١٥٠


لجنة البيان العربي